جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

مسلك التاريخ والحضارة
السداسي الرابع

محاضرات في تاريخ الشرق الأقصى في القرن التاسع عشر الميلادي

- الصين -

الاستاذ : جمال حيمر

السنة الجامعية : 2019 / 2020

تقـــــديم :

تسعى هذه المحاضرات الى التعريف بجوانب من تاريخ الصين خلال القرن التاسع عشر منطلقين من منظورين يربط مسار تطور الأوضاع السياسية والاقتصادية في الصين – خلال الحقبة المدروسة – بالظرفية الدولية التي طبعت روح العصر ، وهي ظرفية الاستعمار الاوربي التي حددت مصير عدة دول تنتمي الى القارة الافريقية والاسيوية ومن ضمنها الامبراطورية الصينية .

وتنتظم محاور هذا المقرر ضمن مستويين :

المستوى الأول : نعرف فيه بشكل مقتضب وإجمالي ببعض المعطيات الطبيعية لبلاد الصين وبعض مميزات الاستوغرافية الصينية وتوجهاتها كما تم التركيز على إبراز عراقة الحضارة الصينية وأصالتها من خلال التعريف بروافدها ومقولاتها وغاياتها ، مستهدفين دحض ما تحفل به بعض المؤلفات الاوربية من مزاعم وتصنيفات تنفي عن كل حضارة غير أوربية أي دور أو إسهام في إغناء الحضارة الانسانية .

المستوى الثاني : نحاول فيه الالمام بوقلئع ومحطات مسلسل التوسع الرأسمالي الاوربي الذي رهن مستقبل الصين على امتداد القرن التاسع من خلال نهج مخطط استعماري اعتمد أسلوب المزاوجة بين الضغط العسكري حرب الافيون) والضغط الاقتصادي المعاهدات اللامتكافئة) مع ما رافق ذلك من إقتطاع تدريجي لعناصر من السيادة الوطنية لبلاد الصين .

مقـــــدمة :

ما أن انتصف القرن التاسع عشر حتى كانت بريطانيا قد احتلت مكان الصدارة على المسرح الدولي بفضل الانقلاب الصناعي والتوسع الخارجي . وتقهقرت الدول الاستعمارية التقليدية الاخرى عن اللحاق بها ، إذ قنع البرتغاليون بممتلكاتهم الصغيرة المتناثرة في أنحاء اسيا وافريقيا وانزوت إسبانيا في أرخبيل الفلبين . وتوقفت على المشاركة في التطورات الاسيوية وقنعت هولاندا بالجزر الاندونسيسة بعد أن طردتها ابريطانيا من سيلان ، وكادت أن تفقد مستعمراتها في حروب نابليون . وخرجت فرنسا متهالكة من ثوراتها الكبرى ومغامراتها النابليونية . ولم تكن الولايات المتحدة الامريكية قد إستكملت توسعها نحو الغرب وأغلقت أبوبها على نفسها قانعة بأراضيها البكر ونفوذها في أمريكا اللاتنية بحكم "مبدأ مونرو ". وكانت إمبراطورية النمسا والمجر مستغرقة في منازعاتها الاوربية والمحافظة على كيانها المترنح أمام ضربات الحركات القومية . أما المانيا وإيطاليا فلم تكونا قد إستكملتا مقومات وحدتهما بعد وانحصر همهما في مشاكلهما القومية .

أما ابريطانيا فكانت الدولة الوحيدة في العالم التي أتاح لها استقرارها السياسي وثورتها الصناعية مركزا متينا جعلها توجه نشاطها الى التوسع في الخارج بعد إنتصارها على عدوها اللدود نابليون وتأكيدها المطلق لسيدتها على البحار . وأتاح لها فتح الهند فرصة فريدة لدعم قوتها ونفوذها فأخدت تؤمن طرقها البحرية الى الهند وتثبت أقدامها في منطقة جنوب شرقي اسيا باحتلال سنغافورة وبورما وسيلان .

بهذه الاطماع برزت بريطانيا تنظر الى الصين في توسعها شمالا بعد أن دانت لها الهند وكل أرجاء المنطقة تقريبا . وهكذا واصلت ضغوطاتها العسكرية والاقتصادية والدبلوماسية على الصين باسم الانفتاح على التجارة مما جعل كل وقائع التاريخ الصيني بعد حروب الافيون عبارة عن محاولات القوى الاجنبية اقتطاع أوصال الامبراطورية الصينية واقتسام مناطق النفوذ فيها . وما واجهته هذه المحاولات من مقاومة شعبية تجلت في عدد الانتفاضات الفلاحية التي شهدتها أغلب أرجاء الامبراطورية . و انتهى مسار تطور الاوضاع في الصين بإرغامها على قبول نظام شبه استعماري من خلال معاهدات غير متكافئة عقدتها الحكومة الصينية مع مختلف القوى الاستعمارية المتنافسة .

1 – المعطيات الطبيعية لبلاد الصين :

تعد الصين ثالث بلد في العالم من حيث المساحة . ومن أكبر المناطق تعميرا إذ تمثل ساكنتها ما يقرب من ربع سكان العالم وتتسم الطبيعة الصينية بتنوع مناخها ووحداتها التضاؤيسية .

سلاسل جبلية مرتفعة سلسلة الهملايا 8840 – سلسلة كوين لون – سلسلة تسين ليتغ – سلسلة تيان شان .

سهول واسعة : السهل الكبير السهل الاصفر) – سهل منشوريا

هضاب منخفضة مغطاة بطبقة سميكة من اللوس وأهم هذه الهضاب Chansi-Chensi

وتخترق هذه الوحدات أنهار كبيرة تقع على أطراف بعضها أهم التجمعات الحضرية الصينية يوهان – شنغاي) ، ومن اهم هذه الانهار اليانغ تسي كيانغ النهر الازرق).

ونفس التنوع يطبع مناخ الصين إذ يمكن التمييز بين ثلاثة نطاقات مناخية :

مناخ قاري يسود الصين الغربية

مناخ معتدل يسود الصين الشمالية

مناخ مداري استوائي يسود الصين الجنوبية

على أن أهم ما يعنينا من تقديم هذه المعطيات الطبيعية هو إبراز الدور الذي لعبته في تشكيل تاريخ الصين الحديث . ومن هذه الزاوية يمكن تقسيم البلاد بناء على معيار تاريخي حضاري .

- صين الثمانية عشر اقليما في الشرق ، يحيط بها بحر الصين ويحددها السور الصيني . وتعد المنطقة الاكثر غنى وتعميرا.

صين التخوم Chine des cofins . وتمتد شمالا وغربا وتضم منشوريا Mandchourie ،منغوليا Mangolie، سيان كيانغ Sinking ، التبت Tibet. وتتميز بشساعة مساحتها وقلة سكانها .

فبخصوص صين الثمانية عشر إقليما فهي تنقسم الى ثلاث وحدات :

صين الشمال أو بلاد ارض الصفراء : تعد مهد الحضارة الصينية ومفتاح الصين . شكلت دوما منطقة جدب بشري لما تتوفر عليه من شروط ملائمة كوفرة تربة اللوس سميت ببلاد القمح ، وسهولة المواصلات والتنقل . وقد لعبت دورا تاريخيا . حيث ظلت لفترة طويلة مركزا لحكم أسرة الهان Han ومقرا للعاصمة بيكن ، فضلا عن أهميتها التجارية باعتبارها محور التبادلات القارية ومحطة تبادل القوافل . غير أن حصيلة المستجدات التي طرأت على الصين خلال القرن 19 م أدت الى تراجع الدور القيادي لهذه المنطقة .

صين الجنوب أو بلاد الألف تل : نظرا لطبيعتها التضارسية من جهة ، ولتواجد المثقفين الذين هم على اتصال بالعالم الغربي من جهة ثانية . فقد شكلت هذه المنطقة مركز المقاومة الشعبية وموطن المعارضة السياسية موطن ماوتسي تونغ – الهونان) سن يات سن مقاطعة كوانك دونك دونغ)

الصين الوسطى أو صين اليانغ شي كيانغ : تمثل حاجزا حال دون سهولة التواصل البشري والفكري بين الصين الشمالية والصين الجنوبية . وقد شهدت مع بداية التدخل الاجنبي تطورا اقتصاديا هاما وإجمالا يمكن تصنيف خاصية كل منطقة كما يلي :

الصين الشمالية : مركز التقاليد والعادات القديمة .

الصين الجنوبية : منطقة الانفتاح نحو العالم الخارجي

الصين الوسطى : منطقة مفتاح الصين الاقتصادية .

وبخصوص صين التخوم Chine des cofins فقد لعبت هذه المقاطعات المحيطية على إمتداد تاريخ الصين أدورا تاريخية متعدد منها :

منطقة عبور القوافل المحملة بالمواد الثمينة

منطقة عبور البوذية والاسلام

منطقة مرور واتصال مع الحضارات الاخرى إيران – الهند وقد بني سور الصين العظيم بغرض حماية هذه التخوم من الهجمات المتكررة التي تعرضت لها الصين في فترات مختلفة من تاريخها .

2 – إعتبارات عامة حول الاستوغرافية الصينية

من أبرز المعتقدات السائدة في الاوساط الفكرية الصينية هي أقدمية التاريخ الصيني . ذلك أنه لما تشكلت أول إمبراطورية في الصين . كان عمر هذا التاريخ قد تجاوز الالف سنة . غير أن مصادر هذه المرحلة لا تتعدى بعض الكرونولوجيات العميقة والسجلات التقليدية . وبدءا من القرن الثالث عرف التأليف التاريخي الصيني تطورا نوعيا تمثل في تزايد عدد الحوليات المدونة من قبل مؤرخين محترفين وذات طابع نقدي . علاوة على الاهتمام الذي كان يوليه الاباطرة للفكر التاريخي حيث كانوا يعنون لجن من المتخصصين بهدف تدوين أهم الوقائع التي ميزت العهود المتعاقبة . وقد شكل تراكم هذه المادة ما عرف في التراث التاريخي الصيني ب Shi lu . Les notes verdiques وهي مادة تعنى أساسا بالتاريخ الرسمي للسلالات الحاكمة . حيث اعتبر الاهتمام بالماضي البعيد في قلب اهتمامات المؤرخ . كما عد الاباطرة الاوائل نماذج ينبغي إبراز أعمالهم والتعريف بفضيلتهم .

ويمكن إجمالا تصنيف أهم أنواع الكتابة التاريخية الرسمية فيما يلي :

المذكرات التاريخية : Shiji Les Mémoires historiques للمؤرخ سي ماكيان SimaQian . وهي تغطي التاريخ الصيني من الجذور الاولى الى حدود عهد أسرة الهان في القرن 2 بعد الميلاد حيث يمكن الحديث عن تقليد استوغرافي صيني . ومذكرات أخرى تؤرخ لفترة حكم أسرة الميتغ Ming . وأهمية SimaQian لاتقف عند حدود كتابة تاريخ شامل يعود الى أقدم فترة واستعمال وسائل جديدة . بل إن إسهامه الاساس يكمن في وضع قاعدة أو إطار للأدب التاريخي السابق وهي :

الحوليات الرئيسية : Benji Annales principalesوهي عبارة عن سرد كرونولوجي لأهم مجريات مراحل التاريخ الصيني .

اللوائح Tableaux Biaoوهي عبارة عن قوائم وسجلات تعرف بأسماء النبلاء وكبار الموظفين

المعاهدات Traitesوهي في أساسها كتابات متفرقة ومتنوعة تخص جوانب إقتصادية ودينية وعسكرية .

المونوغرافيات Zhuanوهي عبارة عن تراجم تعنى بسير الافراد من مشاهير الناس الذين خلفوا أثرا في المجال السياسي والفكري . كما أن بعض هذه المونوغرافيات يتضمن معلومات عن الدول الاجنبية التي ربطتها علاقات مع الصين .

واللافت للانتباه أن هذا التقسيم لانجد له مقابل في أي تقليد إستوغرافي في دول أخرى وقت وضعه .

ورغم أن جل هذه المصنفات الرسمية موجهة في الغالب بأغراض إيديولوجية رسمية . ويحكمها هاجس تمجيد الأسر الحاكمة التي تجعها في مراكز اهتمامها فإن الباحث في التاريخ الصيني لا مناص له من إعتمادها لمل توفره من معلومات ثمينة .

بالإضافة الى هذا التأليف الرسمي ثمة مجموعة من المصنفات التاريخية الموازية ترجع بدايتها الى القرن 11 وجلها من تأليف مؤرخين غير مرتبطين بالبلاط الحاكم .

وتبقى أهم خاصية تطبع الكتابة التارخية الصينية التقليدية بنوعيها الرسمي والخاص هو اعتمادها الكلي على المصدر المدون دون غيره وذلك لقلة البقايا الاثرية من جهة . والتطور المبكر للكتابة المحلية وظهور الطباعة مما جعل الوثيقة المكتوبة وحدها قوام الخطاب التاريخي في الصين .

هذا وتجدر الاشارة الى أن التاريخ الصيني قد حظي كذلك باهتمام المؤرخين الاجانب وخاصة اليابنيين الذين كانوا يرغبون في معرفة وقائع ماضي الدولة المجاورة ، والاوربين الذين تشوفوا لدراسة تاريخ الدولة الصينية بتنظيماتها وشساعتها التي كانت تحيرهم وتستهويهم . ويرجع الاهتمام الاوربي الى بدية القرن 16 م ممثلا في ظهور بعض التأليف العامة في الغرب حول تاريخ الصين . وتزايد هذا الاهتمام طوال القرن 18 م الى أن ظهرت الصينوية (Sinologie) (علم الحضارة الصينية) . حيث برز باحثون أوربيون متخصصون في دراسة هذه الحضارة بكل مكوناتها نخص بالذكر أعمال وترجمات Stanislas julien و Edward chavanas ، ومن المفيد هنا الاشارة الى أن الطابع الغالب على الكتابات الاوربية هو التركيز على الحقب الماضية على حساب المرحلة الحديثة . ومن هذه الحقب التي حظيت باهتمام أوفر نذكر عهدا امبراطورية (التانغ Tang القرن 7 – 9) وعهد أسرة (المينغ Ming ق 14 – 17).

وخلال عقود الاربعينيات والخمسينيات ونتيجة للتحولات النوعية التي عرفتها البنية المجتمعية ونتيجة الاتصال بالغرب عكف بعض المؤرخين الصنيين على إعادة كتابة تاريخهم من زاوية ماركسية . وقد سلهمت هذه الكتابات في كشف النقاب عن قضايا جوهرية ظلت مغيبة في الاستوغرافية التقليدية التقليدية من أبرزها موضوع الفلاحين ومكانتهم في صنع وقائع التاريخ الصيني ودور ثورات العامة jacquerie في تشكل التاريخ الاجتماعي للصين الحديثة .

ملحوظة :

تم الاعتماد على كتاب :
Densys Lombard M : La chine Imperial.O.S.J N°1244

3 – التركيب الاجتماعي – مواصفات عامة –

إن تاريخ الامبراطورية الصينية يكتسي خصوصية شرقية يقتضي فهمها استبعاد كل التصورات الموروثة عن النظرة الاوربية التقليدية حول اسيا وضرورة قراءة وقائع هذا التاريخ بمفاهيم مناسبة للواقع الصيني ، فلا يمكن مثلا مقاربة الوضع الطبقي للمجتمع الصيني بمعايير ومقولات أوربية بل لابد في هذا الصدد من استحضار مقاييس مرتبطة بالكيان الصيني . وتنهض دليلا على مدى التباين الكبير في البنية والتطور بين المجتمعات الاوربية والمجتمعات الغير الاوربية . لقد كان أهم عاملين محددين للتشكلات المجتمعيتية الصينية يكمنان في أولوية مكانة الفلاحة في الاقتصاد الصيني وسيادة الكونفوشيوسية باعتبارها الايديولوجية الرسمية للدولة الحاكمة . تأسيسها على هذا المعطى تؤكد بعض الدراسات المتخصصة أن المجتمع الصيني كانت تتقاسمه حتى حدود القرن التاسع عشر أربع قوى إجتماعية هي كالتالي :

المثقفون Mandarins : تأتي هذه الفئة في قمة الهرم الاجتماعي باعتبارها تستحوذ على سلطة مستمدة من ثلاث أسس ايديولوجية – سياسية – إقتصادية وهو إمتياز يؤهلها لإحتكار المناصب العليا في الجهاز السياسي . فضلا عن سلطتها الاقتصادية بحكم انحدار لأفرادها من العائلات الكبرى المالكة للأراضي .

الفلاحون : يمثلون أوسع كتلة مجتمعية (90 في المائة من مجموع السكان) ورغم تدني مستوى عيش أغلب هؤلاء ، فهم من منظار الاخلاق الكنفوشيوسية يمارسون أنبل الوظائف .

الصناع التقليديون : قرويون وحضريون

التجار : لقد كان حكام الصين ينظرون الى التجارة باعتبارها حرفة وضيعة لاتستحق إهتمام الحكومة . ونتيجة لذلك لم تنشأ طبقة التجار إلا في أضيق نطاق ولم تلعب أي دور حاسم في تاريخ الصين . وبالرغم من أن التجار كانوا يمثلون في الغالب أغنى الفئات الاجتماعية فهم يأتون في أسفل السلم الاجتماعي وفق المعايير الاخلاقية الكونفوشيوسية .

ومع بداية الهجمة الاستعمارية التي تعرضت لها البلاد منذ سنة 1840 وقع تحول في البناء الاجتماعي تمثل في بدايات تشكل البورجوازية الوطنية وبروليتارية مناهضة . كما بدأت تبرز الى جانب النخب التقليدية انتلجنسيا ذات تكوين حديث لعبت دورا بارزا في الحياة السياسية .

4 – الخصائص العامة للكيان الحضاري الصيني

تعد الحضارة الصينية من أعرق الحضارات العالمية القديمة ، بإعتبارها معاصرة للحضارات المصرية والاشورية ، وتعود تعبيراتها الاولى الى القرن السادس قبل المسلاد وقد ميز دوام هذه الحضارة الانسان الصيني بإحساسه بنوع الاستمرارية التاريخية التي جعلت الصين قادرة على مواجهة كل الاخطار ، والتاريخ كما يتصوره الصينيون هو تاريخ دوري. إذ أن كل أسرة حاكمة تمر بفترة التأسيس تم الاوج فالاضمحلال ، لتقوم بعد سقوطها أسرة حاكمة جديدة تمر بنفس الأطوار.

وبالنظر الى كون الحضارة الصينية هي حضارة زراعية بالاساس ، فقد حدث تناغم في الرؤية الحضارية الصينية بين ما هو طبيعي وما هو تاريخي ، تناغم يفسر سر الفهم الخارق للماضي عند الصيني ، وتقديسه وارتباطه بتقاليد هذا الماضي ارتباطا متفردا من نوعه " فالصين هي الماضي الحي " وإن كان هذا التمسك الشديد بالماضي قد فوت على الصين لفترة طويلة كل إمكانية لنشر أفكار التطور

والتقدم ، ولعل هذه الخاصية هي التي تفسر الركود الظاهري للمجتمع الصيني ، والناتج عن شعورهم بتفوق حضارتهم ورفضهم لأي إتصال بالعالم الخارجي .

ومن زاوية هذا التقديس للماضي يمكن فهم الخصوصية العريضة للحضارة الصينية التقليدية منذ بداياتها الى حدود القرن التاسع عشر .

الاسرة محور المجتمع :

المقصود هنا ليست الاسرة الصغيرة وإنما الاسرة الممتدة بمفهومها الواسع والتي تتركب من خمسة أجيال تعيش تحت سقف واحد ، وخاضعة لتراتبية صارمة مستمدة من الاخلاق الكونفوشيوسية ، ونظام هذه الاسرة هو نظام بطركي يوجد في قمته رئيس العائلة الاكبر سنا يتمتع بكل الحقوق ويمارس سلطة مطلقة ، خاصة إشرافه اليومي على طقوس " عبادة الاجداد " تثمل في جملة من العبادات والطقوس التي تميز خصوصية الاسرة الصينية ، من بينها احتفاظ كل اسرة بسجل يحمل أسماء كل الاجداد السالفين ، ولويحات لنفس الغرض تنصب في أجمل قاعة من بيت كل أسرة ، فضلا عن عدة سلوكات وشعائر تعبر في مجموعها عن الاحترام المقدس الذي يكنه الاحفاد للأجداد ، والزواج يبقى من اختصاص رؤساء العائلات ذات الاصل الاجتماعي المتكافئ ويشكل مجموعة الاسر المنحدرة من جد واحد حلفا يمثل وحدة اجتماعية تمتلك أراضي واضحة ومعابد ، ويرأس هذه الوحدة كبار السن الذين يحرصون على نشر العدل والحفاظ على التعاضد العائلي ، ومثل هذا التعاضد يجعل الفرد قوي الارتباط باسرته الى حد يصعب عليه التحرر من عاداتها وتقاليدها وكل هذه الروابط مستوحاة من الفلسفة الاخلاقية الكنفوشيوسية .

الكنفوشيوسية :

إن المبادئ التي نادى بها حكيم الصين كونفوشيوس (551-479 ق م) هي في اساسها جملة من التعاليم الاخلاقية خالية من أي معنى ميتافيزيقي . ومبنية على إستعادة فلسفية لبعض المقولات الشعبية القديمة (اليان ، اليانغ ، الطاو) وهي تمثل منظومة فلسفية تحدد تصورا لبنية الكون والمجتمع البشري والتركيب البيولوجي والروحي للفرد ، والتأمل لهذه التعاليم يدرك أنها تدعو لتأسيس تراتبية عائلية إجتماعية سياسية من خلال حثها على إحترام الفرد للعلاقات الخمس والتشبث بالتقاليد وتبجيل الاجداد ، بهدف الحفاظ على الانسجام المجتمعي والتوازن الكوني ، إن المثل الأعلى لكونفوشيوس واتباعه كان يكمن في ان الاب يجب أن يكون الاب ، والابن هو الابن والسيد هو السيد ، والموظف هو الموظف ، فكل فرد ينبغي أن يبقى في المكان الذي حدده له أمر السماء (الطي مينغ).

لقد شكلت الكنفوشوسية الايديولوجية الرسمية للمجتمع الصيني ، وبات حفظ مقولاتها وعقائدها أساسا لتعيين للاشخاص ذوي الدرجة العليا في وظائف الدولة ، هذا وحيث ساد الاعتقاد بالصبغة العالمية للأخلاق الكونفوشيوسية فقد عمل الصينيون على نشرها في المناطق المجاورة ، كوريا ، اليابان ، برمانيا ، التبت. وبالنظر الى أن التعاليم الكونفوشيوسية ركزت على البعد الانساني والعلاقات بين مكونات المجتمع ولم تخض في مبادئ الدين الأساسية (الخلود – الروحي ....) فإن الصينيين قبلوا تعايش عدة ديانات شريطة أن لايحدث تناقضا بين هذه الديانات وبين الكونفوشيوسية وأن تحترم قواعدها الرئيسية وأهم هذه الديانات هي :

الطاوية : يعتبر لاو – تسو(570 – 490 ق م) أحد معاصري كونفوشيوس الاب الروحي لهذه الديانة وهي ديانة تدعو الى التوافق بين الانسان والطبيعة ، وتهدف الى ضمان حياة أطول للانسان عن طريق القيام بطقوس وشعائر سحرية ، وقد كان للرهبان الطاويين تأثير كبير على الطبقات الشعبية .

البوذية : ظهرت هذه الديانة في الهند حوالي القرن السادس ق م وتسربت الى الصين حوالي القرن الاول الميلادي ، وإنتشرت في القرن الثالث بعد الميلاد ، حيث أصبحت من أقوى الديانات السائدة ، وازداد عدد كهنتها ورهبانها ومعابدها في أغلب أرجاء البلاد الصينية .

بالإضافة الى هاتين الديانتين فقد انتشر الإسلام منذ العصر الوسيط من ناحية الجنوب (طريق الحرير) وأصبحت الجماعات الإسلامية متميزة ومتمركزة بالخصوص في التخوم، في حين فشلت التبشيرية المسيحية في نشر قواعد اللاهوت المسيحي في صفوف الصينيين .

5 – الحضارة الصينية الروافد – المبادئ – الغايات

مقدمة :

يبدو أن تأثير الافكار كان واضحا في المجتمع الصيني منذ نشأته أكثر من أي مجتمع اخر ، فقد كانت "فكرة " طاعة الاباء كفرض شرعي على الابناء واعتبار من لايحترم اباه او أخاه الاكبر مجرما من الافكار التي سادت المجتمع الصيني في الالف الاولى قبل الميلاد ، وشكلت أساس مبدأ تعظيم الاسلاف في المجتمع الصيني ، وأصبح أعظم الاسلاف إلها هو افله "تي " اما " تانج تي " "السيد الاعلى " أو " السماء " فقد أصبح إله الجميع ، وانعكس هذا المبدا على حياة الصين السياسية واتخذ تبريرا لسيطرة اسرة تشو Chou على السلطة باعتبارها ممثلة للسيد الاعلى وتعني الحال كذلك الى أن ظهر حكيم الصين كونفوشيوس (ت 479 ق م) عندما أعلن أفكار المساواة في المجتمع وجعل الإنسان محور تفكيره ، وقسم الإنسان الى إنسان عظيم يفهم الحق وإنسان وضيع يفهم المنفعة .ودعا الى تطبيق مبدا ال "جين Jen " وهي كلمة تعني علاقة الانسان بغيره ، وربط النبالة باالسلوك الشخصي لا بالنسب ، وجعل الالقاب حسب الوظيفة والافعال حسب الكلمات جاعلا السلطة للفضيلة لا للقوة .

ورغم أن كونفوشيوس لم يأسس فلسفته على أساس ديني الا أن مفهوم السماء كان عنده ليس بشرا ، وإنما قوة تقف الى جانب الانسان الوحيد الذي يناضل من أجل الحق . واستعان بها عندما تعرض للمحن ، ولكنه رفض أن تكون أساسا للسلوك الانساني .

والملك في نظره هو ابن السماء يحكم هو الأسياد معه بفضل معونة اسلافهم ذوي النفوذ الذين يحيون في السموات . وهي "فكرة " استغلت وأعطت امتيازا حصينا للارستقراطية الصينية . رغم أم كنفوشيوس لم يكن يقصد منح هذا الامتياز ، فقد ربط كنفوشيوس وجود الحكومة برفاهية الناس أجمعين وسعادتهم وراى أن تحقيق ذلك يتم بكفاية الرجال المرتبطة بالمعرفة والخلق عن طريق التربية الحقة ، من أجل هذا ركز كونفوشيوس على دور الوزير في الحكم وراى أن الملك يجب أن يملك ولا يحكم . مع التشديد في كل دعواته على ضرورة العلاقة الابوية – البنوية في المجتمع ، بمعنى احترام الاب وطاعته مقابل الرعاية وتوفير الحياة الكريمة للابناء وهي "فكرة " طبقت بمعنى واسع على الحاكم الذي راى فيه أبا للأسرة الكبيرة (الشعب) ، والمحكوم الذي يمثله الابناء.

تخلصت فلسفة كنفوشيوس في العلاقات الانسانية بالقول المأثور : ينبغي أن تعامل مرؤوسيك كما تريد أن يعاملك رؤساؤك . وعلى الانسان – حتى يكون فاضلا- أن يراعي أربعة مبادئ هي : العلم الغزير، والسلوك الحسن والطبيعة السمحة، والعزيمة القوية وهي أمور تعني العدالة .

واجه كنفوشيوس الصعاب في حياته ، ولم يؤخذ "بأفكاره " هذه التي تقلل من سيطرة ابن السماء (الملك). الى أن حكمت أسرة هان Han الصين وتبنى الامبراطور وو(140 – 87 ق م) الكنفوشيوسية مبدأ رسميا للدولة وأصبح لها معاهد وأساتذة بهدف جمع البيروقراطيين الموهوبين لاستخدامهم في تسيير أمور الدولة ، ووهكذا أصبح الامبراطور وإدارته يتحكمان في المركز .

أما على مستوى الأقاليم في الإمبراطورية فأصبح المتحكم المباشر هم ملاك الأراضي ، وانعكست الأفكار الكنفوشيوسية على العلاقات بين هؤلاء "والأسرة " الصينية التي تعمل في الارض ، وبقي هذا النظام الاقطاعي القائم على أساس الاسرة بربها ، وعلى أساس علاقة الاسرة بالاقطاعي والاقطاعي بالامبراطور سائدا في الصين الى مطلع القرن العشرين الميلاذي .

تزامنت فلسفة كنفوشيوس مع ظهور فلسفة اخرى هي الطاوية ، وبينما ركز كنفوشيوس على الانسان ركزت الطاوية على الطبيعة والتأمل وجعلت البساطة أساس الحياة ورأت أن الفضيلة تنبع من الداخل وليست وليدة نظام معين ، وبينما أعطت الكونفوشيوسية مواطنين طيعين أعطت الطاوية أسرار مقدسة وارتبطت بالخرافة اكثر منها بالعقل ! وكانت "فكرة " جديدة الى جانب فكر كونفوشيوس . ظهر لها أتباع لكنهم لم يهزوا النظام القائم .

وعلى المستوى العلمي ظهرت مدرسة العناصر الخمسة التي يعتبر تسوين أستاذها (340 – 305 ق م) عندما اعتبرت المعدن والخشب والماء والنار والارض عناصر الكون وتطوره الاساسي ، وجعلت لها نظائر في الحياة : خمسة ألوان ، خمسة فصول ، خمسة أباطرة خرافيين ....ألخ ، وجعلت سيادة كل عنصر من هذه العناصر مرتبطة بزوال الاخر وزوال اسرة حاكمة وصعود غيرها ، وهي مدرسة جديدة تدور أراؤها حول "فكرة " التطور ونظرة الانسان الصيني اليها ، وتجعل منه "قدرا " محكوما بظواهر بعيدة عن قدرة الانسان مما ساعد على ترسيخ النظام القائم أصلا على فلسفة كونفوشيوس .

ومع ظهور مدرسة العناصر الخمسة هذه ظهرت فلسفة " الين – اليانج – أو الشيء ونقيضه" ، باعتبار أن الين يمثل الظلام واليانج يمثل النور، أو الماء والنار، القوة والضعف ....ألخ ، وتجعل فكرة " ين – يانج- من التناقض أساسا لخلق العالم وهي مفهوم غيبي ومنهج تفكيري حول ما هو موجود ، وليس منهج ثقافة واكتشاف لغير المعروف ، إلا أنها تمثل الوجه الاخر لفلسفة كنفوشيوس التي ترتكز على الاستقامة والسلطة والسلف ، وفي إعتماد فلسفة ين – يانج للتناقض أساسا للكون تقترب كثيرا من ثانية هيجل ، ونظرته الى الوجود وتجهل التغير مبدعا لجميع الموجودات في حركة طبيعية لا نهائية لاتتخذ اتجاها اماميا صاعدا وإنما تسير في حركة لولبية وأما عن الانسان فهو مركز الاحداث ويؤثر في التغير بمسايرته ، لا بمقاربته ، وتجعل من أي متعدد واحدا ، والواحد يتفاؤق الى التعدد ، وهذه "فكرة "جديدة حول معنى تطور المجتمع وتفسير أحداث عاشت مع الافكار الاخرى ، ولم تصطدم معها ، وظهرت في الفكر الصيني الماركسي في القرن العشرين .

ونجد مثل هذا التفسير في فلسفة ماوتسي تونج نفسه عندما اعتبر صراع الأضداد أمرا مطلقا ، ووحدتها مشروطة وعابرة وانتقالية .

بعد هذه "الأفكار" جاءت البوذية من الهند لتصبح قوة في القرن الخامس الميلادي في الصين بعد أن ترجمت ال Sutra "تعاليم البوذية " الى الصينية بعد عودة " هشوان تشانج أي تشيانج " إليها ودعت الى السلم وقتل الرغبات ونبذ الحرب ، وبذلك إلتقت مع الطاوية إلا أنها دعت الى التقمص أو التجسيد وهو أمر رفضته الطاوية والكونفوشيوسية ، وهي "فكرة " جديدة لها نظرتها الخاصة في علاقات الافراد والشعوب . ولكن هذه النظرة لا تتناقض مع ما هو موجود من علاقات ، بل تعززه في كثير من الاحيان .

مما يلفت النظر في تاريخ الصين أن هذه الافكار جميعا عاشت بسلام في علاقاتها ولم تحدث شرخا اجتماعيا ، واكتمل بينها تماما في القرن السادس عشر الميلادي . فهي جميعا لم تدع أنها كانت أديانا ، فالدين بمعناه المعروف لدينا والمرتبط بالرسالة السماوية لم يعرف في تاريخ الصين ، وإنما كانت أفكار دنيوية يجنح بعضها الى التأمل .

وأما الكنفوشيوسية العقيدة الرسمية للدولة فلم تهتم إلا بأمور الدنيا ، ولم يفكر كونفوشيوس في أمور ما بعد الموت ، وعندما توجهت الصين لتلبية رغباتها المستجدة في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت جمعيات من البوذية والكنفوشيوسية والطاوية ، تخدم الهدف العام الذي أصبحت تنشده الصين في القضاء على النظام شبه الإقطاعي والسيطرة شبه الاستعمارية اللذين هددا وجود الصين الوطني ووحدته .

إن الفكر الطبيعي التوفيقي الذي ساد المجتمع الصيني وركز على الانسان والطبيعة لم يمنع تأثير حاجات الانسان المادية وظهورها كعامل في تغيير الاسر الحاكمة لا النظام السائد ، وكان من أبرز التغييرات في تاريخ الصين تولي أسرة تانج Tang الحكم (618 – 907 م) إثر نجاح الثورة الزراعية في البلاد آنذاك وإنهاء حكم أسرة " سيو Sui" . ومع بداية القرن السابع الميلادي انتهى الامبراطور "يوان " وابنه "لي شي " من عملية توحيد الصين بعد الثورة الزراعية كما أنهيا بذلك عهد الغزو الاجنبي والاضطرابات التي شهدتها الصين ودامت أربعمائة سنة بعد سقوط أسرة هان سنة 220 م ، وقد حدت أسرة تانج من الاقطاعات الكبيرة ، وخففت الضرائب وشجعت الحرف والتجارة وصناعة السفن والحرير ، مما جعل الصين مركزا من مراكز الالتقاء التجاري والحضاري بين الامم ، ووفد اليها التجار العرب والرهبان والاساتذة الاجانب ، وتصادف أن وجد في عاصمتها شانجيان (شيان الآن) ما بين 4 – 5 الاف أجنبي في ان واحد .

سيادة التعاليم الكونفوشيوسية :

وقد تميز عهد أسرة تانج بإدخال نظام امتحانات الخدمة المدنية القائم على أساس فكر الكونفوشيوس بإشراف الحكومة المركزية لإشغال الوظائف في الدولة ، وهو أمر نسف النظام القائم على شغل الوظائف حسب النسب أو المركز من بين الاسر الكبيرة المتنفذة جاعلا إياه وفق المواهب الشخصية والثقافية الفردية القائمة أصلا على دراسة فكر كونفوشيوس وكتبه القديمة ، وأصبح من صفات شاغل الوظائف العامة ، إضافة الى دراسة فكر كونفوشيوس والنجاح فيه ، أن يكون المرشح ذا موهبة أدبية أو شعرية . وكان كثير من المرشحين يعرضون إنتاجهم الأدبي من شعر ونثر على الممتحنين قبل التقدم الى لجنة الامتحان المكونة من سبعة من العلماء ، وهو أمر أدى في النهاية الى ظهور القصص والقصائد الشعرية ، وما زالت قصص وأشعار "لي باي " ، "دوفو" ، "باي جوياي"، "ولي جونج زاو " و "بان شنج جيان " من المأثورات الادبية في حياة الصين خلفها عهد أسرة تانج ، يمثلها قصة ابنة الملك التنين " والعبد كيم " وغيرها التي تمثل أفكار الشجاعة والفضيلة عند الفرد الصيني ورفضه لمنطق النبلاء والاقطاعيين .

ونلاحظ هنا أن "فكرة " الكونفوشيوس هي الاداة التي استخدمت لنشر الفكر الجماعي بين الصينيين حول ضرورة وحدة البلاد والشعب ، وأدركت أسرة تانج "الفكرة " هذه فاستخدمتها بنجاح ، وكا ذلك اول انتصار للثقافة في المجتمع الصيني عندما لعب الفكر الصيني هذا دورا حاسما في استمرار التماسك السياسي الوطني حتى اليوم . ويذهب كثير من الباحثين الى البحث عن هذا السر ، فيرى بعضهم أنه يعود الى العادات المرعية وأقضاع السلوك الخلقية التي تسود السكان جميعا (بسبب تعاليم الكونفوشيوسية) ، والى هيمنة سلطة مركزية على شؤون البلاد ، تمثلت في الحكم الامبراطورية حتى سنة 1911 م ، كما يرى بعضهم الاخر أن ذلك يعود الى قلة المعارضة للسلطة الحاكمة حسب راي ستيوارت ميل . أما ميدهيرست ، فيرى أن الطباعة هي السبب لانها طبعت أفكار الشعب الصيني طبعة واحدة . وهي تبريرات لايقبلها عقل أو منطق وتعبر عن حقد أكثر مما تعبر عن علم وموضوعية ، إلا أنها جميعا على إختلاف تجعل من الفكرة اساسا للوحدة والعطاء الثقافي والحضاري دون انقطاع ، مما جعل الصين تبدو في نظر اهلها البلاد الوسطى أو مركز العالم ،وتنظر الى شعوب العالم الاخرى كبرابرة متأخرين وتتميز عنهم بملكيتها ل (وين Wen) وهي كلمة أنجليزية تعني الثقافة Culture وكان الادب والفن مكوناتها الاساسية ، وهي على حق إذا ما قورنت بأوربا العصور الوسطى . فعدما زار "ماركو بولو " الصين وأقام في بلاط الخان قبلاي (1275- 1291) كانت الصين قد عرفت التاريخ المكتوب وكتبت أقدم دليل عن النجوم وأول كتاب عن الخيماء ، وأنشات مكتبة للموسيقى جمعت فيها الأغنيات الشعبية والأجنبية منذ عهد قبل الميلاد ، كما كانت قد عرفت الموسوعات التاريخية والجغرافية المصورة ، وكتابة الأدب والشعر والقصة القصيرة ، أضف الى هذا كله أن الصين كانت قد عرفت الورق في القرن الثاني قبل الميلاد والطباعة في القرن التاسع وشهد عهد اسرة "تانج " أول كتاب مطبوع عام 868 م كما عرفت مسحوق البارود في القرن العاشر الميلادي ، وسجلت بذلك سبقها في هده الاختراعات الثلاثة التي مازالت تؤثر في مسيرة الانسان على هذا الكون .

وتزامنت زيارة "ماركو باولو " مع انفتاح صيني حضاري على العالم الاسلامي ، فقد أنشئت أول أكاديمية إسلامية في الصين سنة 1289 م بناء على إقتراح الوزير معز الدين تبعها إنشاء دائرة الفلك الاسلامية في "تانج " سنة 1368 م ، بعد أن كانت قد كتبت الاطلس الكبير سنة 1320 م ، وكانت الصين قد قطعت شوطا كبيرا في التصوير ، استطاع "هوانج وانج " (1269 – 1353 م) إدراك الطبيعة الجوهرية التي هي مبدأ التصوير ، تمكن هذا الفن من تطوير تقاليد غنية متميزة لنظرية الجمال والاساليب الفنية وغحياء أسلوبه القومي المميز ، مما يعني أن الانتاج الفكري في الصين بمختلف أنواعه لم يتوقف .

وعندما بدأ أول إتصال بين أوربا – ماركوبولو – والصين بوصول بعثة الجزويت التبشرية الفرنسية اليها في عام 1583 م كانت الصين في قمة الطباعة ونشر الكتب وكان ماثيوريشي M.Ricci الذي مكث في الصين (1583 -1610) أول مبشري الجزويت العظام ، أول من قدم كنفوشيوس لاوربا ، وفي البداية أعجب الجزويت بالصين مقارنة بأوربا التي كان يسود فيها التناحر الديني وراها نموذجا للعالم عندما كتب أحدهم وهو "بوافر" تقدم الصين صورة زاهية لما سيصبح عليه العالم إذا ما أصبحت قوانينها هي قوانين العالم ، وإنتهت مهمة الجزويت بقيام الثورة الفرنسية ، وكان الاتصال الاوربي مع الصين بعدهم عن طريق المبشرين البروتستانت في القرن التاسع عشر وما بعده ، إلا أن نظرة البروتستانت كانت مخالفة لنظرة الجزويت فقد رأى ليج Legge – المبشر البروتيستاني في الكونفوشيوسية شرا لابد من إزاحته من طريق المسيحية ، وأصبحت الصين تحت تأثير البروتستانت نوعا من الانحطاط الاخلاقي يصعب وصفه أو تصوره في نظر "ويلزوليامز" . وهي نظرة تتطابق مع نظرة أوربا الاستعمارية في

القرن التاسع عشر الى دول العالم كلها وكانت النظرة هذه إحدى مبررات الهجوم الاستعماري على الدول الافريقية والاسيوية ، وتعتبر امتدادا للنظرة الاوربية الدونية عند مؤرخي أوربا الى دول اسيا منذ القرن الخامس ق م في اليونان ، وتعززت في العهد الروماني والصليبي . والتي ترى في القوة اساس التفوق البشري عكس الفضيلة ، كما تعبر عن فشل البروتستانت في إدخال المسيحية الى الصين مما جعلهم يصبون غضبهم على الكونفوشيوسية التي ثبتت في وجه دعواتهم الجديدة .

ورغم هذه النظرة الاوربية الشوفينية ، فإن الاتصال الاوربي مع الصين والتعرف على أحوالها أثرا في كثير من الكتاب الغربيين وأخذوا أفكارهم عن حضارتها، يمثلهم : فولتير في روايته : يتيم الصين : Orphelin de la chine، وليبنيز Leibniz في كتابه الصين الجديدة Noissima Sinica، وبرخت في كتابه : امرأة سنشوان الصالحة Good Woman of Setsuane، وسومرت موم في قصته : Achiness Screen، وروبرت فان جوليك الذي كتب قصص الصين البوليسية متقدما عن الغرب في كتاباته " القاضي دي Juge Dee " وأخيرا كتاب بيرك بيك بعنوان : "الارض الطيبة The Good Earth " الذي تحول الى فيلم سينمائي فيما بعد . مما يعني أن الصين بوعي أو لا وعي أصبحت موضوعا في الفكر الاوربي ، وهو إعتراف ضمني بتفوق الصين الثقافي . ولايستطيع الغرب الإنكار بأن الحدلئق الصينية هي من إستنساخ روبرت فورتن لها وإحضارها الى أوربا . ناهيك عن إستخدام الغرب للبوصلة والورق والطباعة ومسحوق البارود مخترعات الصين التقليدية . وهو إعتراف بتفوق الصين في الانتاج الحضاري المادي .

ورغم فكرة الاستقطاب الأوربي ضد شعوب أسيا ، فان أوربا لاتستطيع الإنكار بان كلمة Seres الرومانية تعني الصين أو شعب الحرير ، وأن السنايمون أو الدارسين (لحاء الخشب الصيني) هي منتجات صينية أصلا عرفتها أوربا وكانت من أغلى السلع فيها ، مما جعل مالتس يعترف في عام 1798 م أن الصين أغنى بلاد العالم . وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت الصين قد أنتجت كتبا عن التكنولوجيا والزراعة والرياضة والفلك ، عرفت جمع كتب التراث الأدبي والتاريخي ناهيك عن تجارتها وإنتاجها المادي عرفته اوربا ، إن ذلك كله والطمع الاستعماري في موارد الشعوب الذي مثلته آنذاك شركة الهند الشرقية البريطانية وسياستها في نشر الأفيون بين الشعب الصيني كان مقدمة للغزو الاستعماري العسكري المنظم للصين في حرب الأفيون من 1840-1842 بقصد السيطرة على موارد الصين الاقتصادية ومحو ثقافتها التقليدية .

<u>بعد حرب الأفيون :</u>

وقد هزت هذه الحرب – وما نتج عنها من فتح موانئ الصين للتجارة الاوربية وفرض تجارة الافيون عليها – أساس النظام السياسي والثقافي في البلاد قاطبة وأظهرته بمظهر الضعيف أمام القوة الاوربية ، وكان أحد ردود الفعل الصينية أن ظهرت أصوات تطالب بتبني وسائل البرابرة لمقاومتهم بمعى تعلم التكنولوجيا المتقدمة، ومثلها في المرحلة الأولى المصلح الديني الصيني "دي يوان" (توفي 1857) ، كما ظهرت اصوات تنادي بالاستفادة من الحضارة الاوربية وثقافتها ، وشهدت الصين بعد حرب الافيون بسنوات ترجمات صينية عن الغرب في الجبر والنبات والهندسة التحليلية في عام 1859 م وترجمتها ، تبعها إنشاء دائرة الترجمة في شنغاي سنة 1865 م لترجمة الثقافة الغربية . وخطت الصين نحو الغرب خطوة متقدمة عندما أنشئت في عام 1893 م أول مدرسة حديثة في ووهان ضمت أقساما في الرياضيات والعلوم الطبيعية والتجارة .

وكان " يانج ونج " ممثلا أخر لهذا التوجه نحو الاستفادة من حضارة الغرب وهو أول طالب صيني يدرس في أمريكا ، وتبعه " تشن كيوان يانج " الذي نشر كتابه بعنوان " ما يلزم لشفاء أمراض المجتمع الصيني « Essential of Curing the Society Maladies » .

وركزت هذه المجموعة على ضرورة التوجه نحو التصنع ونادت بضرورة التغيير التدريجي للمجتمع الصيني لا التغيير الثوري ورواوا أن ذلك يتم عبر تقديم الغنى لماله والفقير لعلمه ونادوا بالملكية الدستورية .

استجاب الإمبراطور " كونج هيو " لمطالب دعاة الإصلاح وأصدر قانونه في 1898/6/11 م بالبدء في حركة إصلاح تشمل الصين كلها الا أنه ووجه بمعارضة قوية من الإمبراطورية أرملة " تسوهسي" ومن يساندها من أمراء الإقطاع الذين رفضوا الاخد بهذا التوجه الإصلاحي مما أدى إلى فشل الحركة التي لم تدم أكثر من مائة يوم وهرب صاحبها خارج البلاد ..

إلا أن هذه الحركة كانت خطوة على طريق التحول الصيني رغم فشلها إذ تنامى في الصين التيار الداعي للديمقراطية والرافض للنظام الإمبراطوري والإقطاعي ، وأعطى فرصة لنمو طبقة جديدة في المجتمع الصيني لا تتفق وطبقة الإقطاع وأمراء الحكم عندما ظهرت تحولات الى صناعة ، وملك كثير من ملاك الأراضي السابقين أو التجار ورشا للحرف والمصانع وبدأت تتشكل طبقة عمالية بلغ عددها خلال الحرب العالمية الاولى حوالي 1.750.000 عامل ، إلا أن أصحاب الصناعات الجديدة والاحتكارات المالية لم يرتبطوا عضويا مع غالبية الشعب الذي يعاني الفقر والقهر ، وبدأ يعاني من فقدان الاستقلال الوطني بعد الامتيازات الاجنبية وهزيمة النظام الامبراطوري في أكثر من حرب أشهرها الحرب الصينية الفرنسية 1885/1884 م الحرب الصينية اليابانية 1894/1885 م بعد حربي الأفيون الأولى والثانية .

وعندما وقعت الصين معاهدة شومنسكي سنة 1895 م ومنحت فرصا متساوية للدول الاستعمارية في استغلال الصين ونهب ثرواتها والسيطرة على عقول شعوبها ، كانت التناقضات الطبقية ، وبروز إرهاصات التململ ضد النظام القائم قد بدأت ، وتم تشكيل الجمعيات السرية التي أعلنت شعار " اضرب الاغنياء وساعد الفقراء " كما اعلنت رفضها ومقاومتها للتيارالثقافي والديني الذي بدأ يغزر الصين .

<u>التذبذب الثقافي :</u>

ولد الاحتكاك الصيني المباشر مع الغرب تطورا في اتجاهات المفكرين والمثقفين الصينيين (كما رأينا) والذين كانوا أصلا في غالبيتهم من البيروقراطيين المرتبطين بالطبقة الحاكمة ، إلا أن الوضع الجديد في الصين فرض ضرورة الاهتمام بدراسة المشكلات العملية ، وكانت أولى الخطوات على المستوى الثقافي في هذا الاتجاه إدخال النظريات الاجتماعية الغربية السائدة في أوربا الى الصين بعد ترجمتها ، وظهر " يان فو " (سنة 1921) عندما ترجم "روح القوانين " لمونتيسكيو ، و "أصل الانواع" لدارون ، و"ثروة الأمم " لادم سميث ، كما ترجم أعمال توماس هسكلي ، وجون ستيموارت مل وهربرت سبنسر ، ورغم هذا كله ، فقد كان اهتمامه الأساسي هو مجال الدراسات الصينية مما يعني عدم التسليم بالتفوق الحضاري الغربي ، وأصبحت مهمة المثقفين الصينيين في تلك الفترة كما رآها " ليانج شياشياو" سنة 1929 م استخدام المنهج الاوربي في دراسة حضارة الصين واكتشاف جوهرها الحقيقي ، وتنظيم هذه الحضارة بطريقة تظهر فيها كحضارة حديثة ، ونشر هذه الحضارة في الخارج لاستفادة الانسانية منها ، ويلاحظ هنا بوضوح أن المثقف الصيني أصبح مشدودا بين عاملين اثنين : أولهما - التطلع الى ماضي حضارة

الصين بما فيها من عقلانية وروحية وعدم قدرتها على تلبية حاجات الصين بعد الغزو الاستعماري ، وثانيهما – النظرة الواقعية المرتبطة بالحاضر الذي انفتحت عليه الصين واكتشفت من خلاله حضارة الغرب العلمية والتقنية والعسكرية وهي حضارة مرتبطة في ذهن الصين بالغزو والنهب ومحاولة النيل من استقلال البلاد ، إلا أن هذه النظرة الجديدة لم تستطع أن تكون بديلا بسبب عدم قبولها وعدم انتشارها بين مجمل فئات الشعب الصيني التي يشكل الفلاحون فيها الغالبية العظمى التي كانت حتى ذلك الوقت مرتبطة بتراث الماضي الثقافي ، وفي حاجة الى ثقافة بديلة تقتنع بها لتغيير واقعها المرير .

واستمرت علاقة المثقفين الصينيين بالماضي في اللاوعي ، ممثلة في السلوك والنظرة الى الحياة والعادات والمعتقدات مع تداخل الاهتزاز والنظرة التأملية لهذه الثقافة في جانب والحذر والتأمل في الاخد بمنهج الحضارة في جانب اخر ، ويظهر هذا الاهتزاز في دعوات صينية أخدت طابع الايديولوجية الاوربية منها أخلاقيات " لين تسوهسيو " ، وبراجماتية " تسننج كوافان " وإصلاحية " كوانج يووي " ، وإنتقائية " شانج شي تنج " فقد امن لين بقوة وسلطة البلاط السماوي ومكانة مملكة السماء ، كما اعتقد تسنج بان الصين لها من المنابع الروحية مما يدعم دفاعها الذاتي أمام أي حضارة أخرى ، إلا أنه كان راغبا في تعلم الشعب الصيني للصيغ الغربية التي تستخدمها الصين في هذا الدفاع ، أما " كوانج يووي " ، فقد راعى ضرورة إصلاح الامبراطورية والمبادئ الكونفوشيوسية لا إلغائها على خلاف زميله "سانج تنج " الانتقائي الذي راى ضرورة تقوية عزم الصين في تكريس ثقافتها مع العالم الغربي التقني والاخد بهذه الثقافة ، وهي ظاهرة شاعت بين المثقفين في أكثر من بلد غير الصين عندما جرى الانفتاح على الحضارة الغربية ظهرت المدارس الفكرية المشايهة لها في أكثر من بلد عربي في تلك الفترة بالذات مصر ولبنان .

رافق هذا التيار الجديد نهضة أدبية صينية مجدت بطولات الشعب ضد المستعمرين في حرب الافيون ، وفضحت جرائمهم ، كما أدانت حكام أسرة "شنج Qing " القابضة – على زمام الامور في الصين أنذاك واتهمتها بالاستسلام للغزاة ، وتعتبر قصيدة "دي بوان " بعنوان "العالم " مثالا على ذلك ، كما ظهر "زهانج ويبنج " في قصيدة بعنوان " سانيونلي " الذي وصف فيها العواطف الوطنية والاعمال البطولية لجماهير المدينة ضد الغزاة البريطانيين ، وتبعه الشاعر الشهير " هوانج زونشيان " سنة 1905 الذي كتب أكثر من قصيدة في هذا المجال . ويمثل هذان الاتجاهان : التوجه نحو الاخد بمنهاج الغرب في التفكير وحركة الإحياء الادبي الوطني انقضاضا واضحا على الواقع في الصين ، ورفضا للثقافة الاقطاعية السائدة أنذاك ، ونقدا مباشرا للطبقة الحاكمة والبيروقراطية المرتبطة بها .

وتوجهت هذه الحركة بإنشاء جامعة بكين سنة سنة 1912 وفرض سياسية إصلاح التعليم العام ، إلا أنها لم تصل الى مرحلة تحديد الطريق الصيني تحديدا واضحا "لإنقاد الامة " التي أصبح إنقادها امرا ملحا . ومع ذلك كانت الصين قد خطت الخطوات اللازمة نحو التعليم وأصبح بها ما بين 1915 – 1916 م ، أربعة ملايين طالب ومائتا ألف مدرس تركز معظمهم في المدن ، ولم يطرأ تغير ملحوظ على المستوى التعليمي بالريف .

حاول الاقطاعيون وأمراء الحرب الذين ظهروا على مسرح التاريخ الصيني انذاك وسط التذبذب الثقافي الحد من الاتجاه الثقافي الجديد والعودة الى عبادة كنفوشيوس وتعاليمه ، الا أن هذا الاتجاه تمت مقاومته بعنف ، ولم تستطع العسكرية الصينية أو الاقطاعية العودة بعجلة التاريخ الى الوراء ، الا أن هذه الطبقة بحكم عدم وجود البديل ، استمرت تحكم ، لكنها في حالة من الترنح والاعياء والترقب لما قد يحدث دون

قوة حقيقية ، مما زاد في ضعفها تعرض الصين للغزو الياباني وعدم قدرة هذه الطبقة على التصدي له ، مما أوجد خللا في العلاقات بينها وبين مجما الشعب الصيني من الفلاحين .

الثورة الثقافية الأولى :

مع بزوغ التيارات ، ظهرت أفكار الديمقراطية الجديدة وأخذت تفرض نفسها على المجتمع الصيني ، وظهر في تاريخ الصين الحديث لاول مرة مجلة "الشاب" سنة 1916 ، وتحولت الى "الشباب الجديد " سنة 1918 م ، وتبنت شعارات الديمقراطية ، والعلم والاداب الحديث ، وقاومت صراحة الاتوقراطية الاقطاعية وانحرافات الادب القديم الكلاسيكيات الصينية وركزت هجومها لاول مرة على كونفوشيوسية باعتبارها إيديولوجية الاقطاع ، التي جعلت المجتمع الصيني مستسلما لها ودعت الى تحرير العقل الصيني وطالبت بالبحث عن طريق جديد لخلاص الصين وإنقاذ شعبها ، وكانت بذلك أول مجلة الفكر الماركسي في الصين .

ورغم أن الاتجاه الديمقراطي السابق لهذه الحركة والذي قاده " صن يات صن "، نجح في عام 1911 م في إسقاط النظام الامبراطوري وإعلان جمهورية الصين ، الاأنه لم ينجح في حل مشكلات الصين التي تراكمت عبر عهد الاقطاع الطويل ، وازدادت مع الغزوات الاستعمارية وفرض الامتيازات الاجنبية والسيطرة على خزانة الدولة حتى تغطي الغرامات التي فرضت على الشعب الصيني تنيجة لهذه الحروب ، وتعرضت الصين لخلافات داخل حركة "صن يات صن " نفسها ، اعتزل على إثرها "صن يات صن "رئاسة الجمهورية وسلمها لاحد العسكريين الذين شاركوا في إسقاط النظام الامبراطوري ، إلا أنه سرعان ما عاد الى الرئاسة وبقي رئيسا حتى تةفي سنة 1925 .

لم ينجح تيار صن يات صن في إشاعة ثقافة بديلة للثقافة الجمعية التي عاشها الشعب الصيني عبر قرون متعاقبة رغم أنه مثل اتجاها وطنيا لقي التأييد والتقدير عند الشعب الصيني حتى اليوم بحكم مقاومته ونجاحه في إسقاط النظام الاقطاعي أو شبه إقطاعي والحد من سيطرة الواقع شبه الاستعماري الذي تعرضت له الصين .

وكان ذلك يعني رفضا صينيا للاخذ بتجربة أي من الامم التي مارست الاضطهاد على الشعب الصيني عبر قنواتها العسكرية منذ سنة 1840م بما في ذلك روسيا القيصرية . وكان راي " كيووي " سنة 1905 م أنه الاعتراف المؤلم بأن ثقافة الصين الماضية بتاريخها المتنوع وفلسفتها العميقة وحساسيتها الجمالية وذوقها الادبي لايمكن الاعتماد عليها في المهمة العاجلة " لانقاد الامة " وأن الافكار الغربية عن العلم والديمقراطية اللازمة لصين قوية وغنية لم تحرك لاقلب ولاروح المثقفين الصينيين ، وأخذوا يشعرون بخيبة أمل عاطفية وفراغ ثقافة الماضي في تقبل الشعب لها إلا انها مغايرة في الاساليب والمفاهيم اللازمة لبناء الصين حديثة وقوية .

ظهرت ثورة أكتوبر لسنة 1917 م في الاتحاد السوفياتي ، وأنهت النظام القيصري لاسرة رومانوف الحاكمة فغعتبر الكثير من الصنيين السير في طريقها وسيلة لتحرير الصين نهائيا بعد أن رأوا فيها فجر عهد جديد . ولقيت إهتمام أكثر من غالبية الشعب (الفلاحين) عندما أحسوا بدور زملائهم الفعال في احداث ثورة في بلد مجاور لهم ، مما يعني أن ثقافة تستطيع إخراج الفلاحين عن ثقافتهم التقليدية التاريخية الى ثقافة جديدة يشترط فيها أن تكون ثقافة جمعية يلعب فيها الفلاح دورا أساسيا بتوجيه من المركز لابتسليط منه .

وهو أمر يعني بداية توجه الصين نحو تيار فكري مغاير تماما للفكر الصيني التقليدي وللفكر الاوربي البرجوازي الذي بدأ يتسلل الى بعض فئات المثقفين ، إلا أن هذا التيار الماركسي لم يكن أقوى التيارات الثقافية الجديدة انذاك إن لم يكن أضعفها ، لكنه سرعان ما أصبح قوة مسيطرة بين المثقفين الوطنيين والرافضين للماضي . وساعد على قوته الانهيار الذي بدا يظهر في النظام السياسي والثقافي الصيني ، وإستطاع هذا التيار الماركسي أن يمس بعنف مجمل العلاقات الاجتماعية السائدة في الصين وأن يحولها الى تحديات جديدة ، وأصبح الغضب رد فغل دفاعيا ، والفخر دفاعا عن الذات ، واحتقار كل ماهو سائد منحى تفكيريا .

ورغم محاولة بعض المثقفين الحد من هذا التيار المتزايد ممثلا في "هوشية " سنة 1962م بإلحاحه على ضرورة الاهتمام بمشكلات الصين القابلة للحل تحت تأثير أفكار " جون ديوي " ، إلا أنه اتهم بعدم الواقعية لان أفكار ديوي أصلا ليست مؤهلة لحل مشكلات الصين بقدر ما هي منبثقة من واقع المجتمع الأمريكي ، لذا اصبح التحول الى الفكرالجمعي الجديد في الصين هو الامل الذي يلوح لإنقاد المة ، ويعتبر هذا التوجه بداية لثورة ثقافية في تاريخ الصين كله ثبتت أقدامها في حركة 4 مايو 1919 م الطلابية عندما تجمهر حوالي 300 طالب من طلاب جامعة بكين مطالبين بإلغاء ما يخص الصين من معاهدة الصلح (فرساي) التي وقعت في يناير 1919 م واعترفت لليابان بحق السيطرة على بعض الجزر الصينية التي كانت تحت السيطرة الالمانية ، وتحولت المظاهر الطلابية هذه في الايام التي تلتها الى مظاهر شعبية عارمة عبرت عن رفضها الكلي لاي علاقة من الدول الغربية الاستعمارية التي لم تعر ما يجري في الصين من محاولات للتغيير أي اهتمام . وأخذت بمصالحها ومصالح اليابانيين ونجحت الحركة عندما رفضت الصين تةقيع الاتفاقية .

وكانت حركة 4 مايو الطلابية حدا فاصلا في تاريخ الصين أثبت عجز الاتجاهات الغربية الفكرية الجديدة في الصين عن تلبية مطالب الشعب الصيني الوطنية ودللت على وجود ارهاصات جديدة مختلفة تمام الاختلاف عما سبقها بين الشباب الصيني وأصبحت تعتبرالكنفوشيوسية من الماضي المهجور، وهو رفض قائم على الوعي بالواقع عندما وضعت هذه الحركة حدا لسيطرة اللغة الكلاسيكية الصينية وأعلنت قدوم الحداثة .

إلا أن الرفض لثقافة الماضي كان يعني رفضا لهوية ثقافية صينية قائمة منذ الاف السنين دون وجود البديل بين غالبية الشعب ، مما عقد دور حركة 4 مايو الثقافي ، إلا أنها نجحت في إحياء الحزب الوطني (الكومنتانج) الذي أنشاة صن يات صن سنة 1914 م وكانت منبع الحزب الشيوعي الصيني .

6 – التدخل الأجنبي في الصين خلال القرن التاسع عشر :

- الطور الأول –

مع مطلع القرن التاسع عشر دخلت الصين مرحلة حاسمة من تاريخها العريق اتسمت بتازم شامل طال كل الميادين وتأكد مع حلول منتصف القرن 19 بشكل فعلي العجز الكلي لحكومة المانشو عن الحفاظ على سيادة البلاد وهيبة إمبراطورية السماء أمام الأجانب ورعاياها على السواء .

لقد كان أهم ما ميز تطور الاوضاع في الصين خلال هذه الظرفية هو اشتداد الضغط الامبريالي وما أثاره هذا الضغط من تدمر واستياء في صفوف الفئات الشعبية اختلفت أشكال تعبيره ما بين انتفاضات فلاحية وتمردات تتزعمها جمعيات سرية وبين ثورات شعبية تقودها الأقليات الاثنية والدينية المضطهدة . وكلها شكلت هبات عنيفة هزت أركان الإمبراطورية الصينية بأسرها . لقد ظلت التجارة الأوربية في الصين خلال المرحلة السابقة عن القرن التاسع عشر منحصرة في بعض المرافئ (ماكاو وكانتو) حيث فشلت عدة محاولات للبعثات التجارية الأوربية في مساعيها الهادفة الى توسيع المبادلات التجارية بين بلدانها والصين ، والى حدود العقود الأولى ، من القرن التاسع عشر ظلت قيمة صادرات الصين تفوق بكثير قيمة وارداتها ، ذلك أن الأوربيين ، وفي مقدمتهم الانجليز كانوا يقبلون على شراء كميات كبيرة من الشاي والحرير والخزف وسلع أخرى دون أن يتمكنوا من تصريف المقابل من بضائعهم ، غير أن هذا الوضع سيتغير مع تزايد اهتمام الرأسمالية الأوربية بالسوق الصينية ، فبريطانيا بعد أن تقوى نفوذها بإتمام غزو الهند وبما صار لها من قوة وبطش من جهة أخرى ، وأمام استمرار الرفض الصيني للعروض البريطانية الرامية الى توسيع العلاقات التجارية من جهة أخرى صممت على إستخدام القوة لإرغام الصين على فتح أبوابها أمام التجارة الحرة ، وتأتي لها ذلك عن طريق إدخال الأفيون إلى الصين . حيث لجأت شركة الهند الشرقية إلى ترويج هذا المخدر على نطاق واسع فقفزت نسبة تجارته من 17 في المائة سنة 1818 م الى 50 في المائة سنة 1833 م من مجموع قيمة الواردات البريطانية الى الصين .

إذا كانت هذه التجارة قد مكنت بريطانيا من تعديل كفة الميزان التجاري في مبادلاتها مع الصين لصالحها وجعلتها تجني أرباحا مذهلة ، فغني عن البيان ما كان لنشاط تهريب الأفيون من أثار وخيمة على أبدان وعقول الناس خصوصا إذا علمنا أن عادة تدخين هذا المخدر قد إنتشرت بسرعة بين أبناء الشعب الصيني ، إذ تفيد بعض التقارير أن نسبة مدمني ألافيون قد ارتفعت في أواخر القرن الماضي الى حوالي ربع الشعب الصيني ، ناهيك عما وجهته هذه التجارة من ضربات موجعة للاقتصاد الوطني تمثلت في تدفق العملة الفضية خارج الصين دون مراقبة ، وارتفاع ثمنها ارتفاعها كبيرا في الداخل ، بالإضافة إلى تفشي الرشوة في صفوف المسؤولين وجباة الضرائب الذين عملوا على تحصيل قدر أكبر من المحاصيل والضرائب حتى يظل رصيدهم من الفضة ثابتا رغم ارتفاعها ، كل ذلك ساهم في خلق جومن الاستياء العام في صفوف قطاعات عريضة من الشعب تطالب بالقضاء على الافيون ولاسيما الفلاحين الذين وقع على كاهلهم العبء الأكبر ، مما يفسر الدور الريادي لهذه الفئة الاجتماعية في أغلب التمردات والانتفاضات التي عمت مجموع البلاد الصينية حوالي النصف الثاني من القرن 19 م .

وتحت ضغط الرأي العام وشعور الحكومة الصينية بالخوف من استفحال عواقب تجارة الافيون اقتصاديا وسياسيا قرر الامبراطور اتخاذ إجراءات فعالة لإيقاف تلك التجارة وأهمها إصدار مرسوم يقضي بمنع تجارة الافيون منعا كليا وفرض عقوبة صارمة على المهربين الصينيين وكل من له علاقة

بهذه التجارة ،ومن أجل تنفيذ هذه الاجراءات عين (لي تشي هسو) مندوبا إمبراطوريا ساميا وتخويله سلطات مطلقة لأداء مهمته ،وفور وصوله الى كانتون طلب التجار الاجانب بتسليم ما لديهم من أكياس الافيون والحصول على تعهدات من ربابنة السفن بعدم إحضار الافيون أو بيعه وإلا تعرضوا لعقوبة المصادرة ، كما أمر جميع العمال الصينيين المرتبطين بهذه التجارة بمقاطعة أي تعامل مع التجار والسفن الاجنبية ، وأمام رفض المشرف البريطاني على التجارة في كانتون لأوامر المندوب الصيني ، قام هذا الأخير بمحاصرة حي التجار الاجانب في كانتون وحجر أكثر من 20 ألف صندوق من الافيون وإحراقها في حفل عام سنة 1839 م وقد كان هذا الاجراء بمثابة الشرارة التي أشعلت نيران حرب الافيون الاولى .

لقد أثار إجراء المسؤول الصيني غضب البريطانيين باعتباره يحرمهم من مورد ضخم يدر عليهم أرباحا كبيرة ، لذا أعلنت بريطانيا الحرب على الصين في أبريل 1840 م بدعوى أن الصين تقف في وجه التجارة الحرة وتسيء التعامل مع الرعايا والتجار الانجليز ، كما طالبت بتعويض قيمة الافيون المصادر والاعتراف بشرعية الاتجار في الافيون كسلعة تجارية فضلا عن شروط أخرى استهدفت النيل من سيادة الامبراطورية .

وأمام رفض المسؤول الصيني للمطالب البريطانية دخل الطرفان في مواجهة عسكرية تمثلت في حصار الاسطول البريطاني ليمناء كانتون ، ومنه واصل البريطانيون قصفهم لموانئ أخرى ، وتمكنوا من احتلال ميناء أموي Amoy وتيجهاي ونينغ بو Ning-po (9 مارس 1842 م) وشنغاي(18 يونيو 1842 م) هذا وقد تخللت هذه المعارك التي دامت سنتين مفاوضات فاشلة (اتفاقية شوينيي التي نصت على تسليم هونج كونج الى الانجليز ، ودفع غرامة ستة ملايين ريال من الفضة ، وفتح كانتون للتجارة البريطانية) وما أن تأكد تفوق القوات الابريطانية حتى عبرالصينيون عن إستسلامهم خصوصا وأن هذخ القوات كانت قد عبرت نهر اليانغ تسي كيانغ للقيام بهجوم على مدينة نانكينغ ، المدخل المباشر لبكين ، وهناك تم توقيع معاهدة نانكينغ 19(يونيو 1842 م) التي حوت شروطا مجحفة في حق الصين وجعلتها تحت رحمة الرأسمالية الاجنبية .

لقد أرغمت الصين على فرض غرامة مالية كتعويض عن الافيون المصادر ، على أن من أخطر بنود هذه المعاهدة هي التنازل لبريطانيا عن جزيرة هونج كونج ذات الموقع الاستراتيجي الخطير ، وفتح خمس موانئ للتجارة الاجنبية : كانتون – شنغاي – أموي – نينغ يو – فوتشيو Foutehou يسمح فيها للتجار الاجانب وعائلاتهم ومؤسساتهم بالاقامة بقصد مزاولة أعمالهم التجارية دون أدنى مضايقة أو قيد كما فرض على الصين تحديد الرسوم الجمركية على الوردات البريطانية وان لا تزيد على 5 في المائة مما شل نمو الصناعة الوطنية ، واتفق على تعيين قناصل بريطانيين يتكلفون بالدفاع عن مصالح التجار الانجليز وتطبيق القانون البريطاني على الرعايا الانجليز جنائيا ومدنيا ، وأخيرا حصلت على إمتياز يجعلها الدولة الاكثر رعاية (**شروط الدولة الأكثر رعاية هو أحد البروتوكولات المكملة لمعاهدة نانكينغ يقول : " إذا منح الإمبراطور فيما بعد ولأي سبب كان اية امتيازات أو حصانات إضافية لرعايا أو موظفي أية دولة أجنبية أخرى فإن نفس هذه الامتيازات أو الحصانات سوف تمتد ويتمتع بها الرعايا البريطانيون)** في معاملاتها التجارية مع الصين ، وكان من الطبيعي في إطار التنافس الاستعماري التقليدي أن تتحرك باقي الدول الاجنبية للحصول على امتيازات مماثلة لتلك التي حظيت بها أنجلترا بمقتضى معاهدة نانكينغ ، وأمام تهديدات هذه الدول اضطرت الحكومة الصينية الرضوخ الى مطالبها وإمضاء اتفاقية وانجهيا (3 يونيو 1844 م) مع الولايات المتحدة الامريكية ، تم اتفاقية وامبوا (Wham pou) 24 أكتوبر من نفس السنة مع فرنسا وقد

نصت هذه الاخيرة بالاضافة الى الامتيازات الاقتصادية على حق إقامة الارساليات التبشيرية ورعاية الدين المسيحي .
لقد أكد تطور الاحداث مدى ضعف السلطة الحاكمة وعجزها عن الحفاظ على سيادة البلاد من جهة ، وعدم قدرتها على التحكم في الاوضاع المضطربة وفشلها في مواجهة الانتفاضات الفلاحية من جهة ثانية ، وقد كان من أخطرها انتفاضة التايبييغ .

انتفاضة التايبييغ[1]

عرفت الصين طوال تاريخها العريق عدة هبات فلاحية بدءا من حركات العمامات الصفراء Turbans Jaunes في القرن الاول الميلادي ومرورا بالإنتفاضات التي قامت في عهد سلالة سونك Song في القرنين 12 و 13 م ثم إنتفاضات أواسط القرن 17 م . غير أن حدة هذه الانتفاضات إشتدت أكثر ، وعرفت إقاعا مسترسلا ابتداء من العقد الرابع من القرن 19 م ، حيث قام الفلاحون الصينيون بأكثر من مائة هبة محلية في القترة مابين عامين (1841-1849) منها 26 هبة في عام 1848 وحدها ، وخلال الفترة الممتدة ما بين (1850 – 1870) اندلعت في مجموع الاقاليم الثمانية عشر موجة من الانتفاضات بتأطير من الجمعيات السرية . الى درجة أصبحت معظم هذه الاقاليم خارجة عن تحكم السلطة المركزية خاصة ما بين (1855 – 1860) ولم يكن من الصدفة أن تندلع هذه التحركات في الوقت حروب الافيون وانفتاح أبواب الصين أمام التجارة الحرة ، لقد كانت في مجموعها تعبيرا عن مدى تذمر الشعب من اثار الهجمة الاستعمارية ومن تعسف جباة الضرائب واستبداد موظفي الدولة وتخاذل أسرة المانشو الحاكمة. ولم تشكل هذه التحركات ثورات بالمعنى الدقيق للكلمة ، بقدر ما كانت هبات عفوية سرعان ما تخبو إما بتدخل الجند لسحقها ، أو تفشل لقصور كفاءتها التنظيمية أو لضعفها العسكري ، أو لعدم قدرتها على الامتداد وراء الحدود .

وتعتبر انتفاضة التايبنغ من أعنف هذه الانتفاضات وأكثرها أصالة بالنظر الى وقعها السياسي ، وامتدادها الزمني والمكاني ، وحجم قاعدتها الاجتماعية ، إنها نفس الان نتيجة لما الت إليه الاوضاع المتأزمة في الصين ولمضاعفات التدخل الاجنبي .

قاد حركة التايبينغ مدرس ينتمي الى أسرة فلاحية فقيرة من الجنوب يدعى هونغ سيوتسواف Hong Xivquan ، الذي كان على إتصال بإحدى الارساليات التبشيرية ، فتأثر ببعض مبادئ الديانة المسيحية مما أضفى على حركته طابعا دينيا يمزج بين عناصر من العقيدة الكونفوشيوسية واللاهوت المسيحي وأشاع أنه مبعوث من الاه السماء لإسقاط دولة المانشو وإقامة دولة بديلة تقوم على المساواة المطلقة بين الناس .

وقد انضم الى جمعية " عباد الله " التي اسسها هونغ عدد من الانصار من مختلف الفئات المتضررة من واقع الازمة كالفلاحين الفقراء وعمال المناجم والحطابين ، وقد تولى بعضهم الزعامة السياسية والعسكرية في دولة التايبينغ نذكر منهم شي تاي كاي Shi Dakai ويلي هيسو شينج . لقد انطلقت حركة التايبينغ من إقليم كوانجسي Guangxi حيث كان الصراع بين الفلاحين وملاكي الاراضي وممثلي

[1] - التايبييغ TAIPINQ TIANGUO : "Royaume céleste de la Grande paix" المملكة السماوية للسلام الأكبر .

الجهاز السلطوي قد بلغ مدى لم يبلغه في أي مكان اخر ، فضلا عن موقعه كمنطقة خلفية لكانتون إحدى الواعد الرئيسية للتواجد الاوربي .

وشرع هونغ في تنظيم مجموعات من الفلاحين المسلمين سرعان ما ازدادت أعدادها وانبثق عنها جيش قوي ارتفع عدده من عشرين ألف إلى أكثر من مليون مقاتل ، وبهذه القوات استطاع هونغ احتلال شمال كوانجسي وإعلانه إمبراطورية مملكة السلام السماوية في 11 يناير 1851 م ، ثم واصلت قوات التاينبيغ تقدمها نحو الشمال ، واحتلت مدينة نانكينغ سنة 1853 م واتخذتها من كوانجسي الى نانكين تقوم بتحطيم القصور ، وتصفية ملاك الاراضي والماندران Mandorins وخدامهم . وتصادر اموالهم وممتلكاتهم لتوزعها على الفلاحين في كل منطقة تدخلها .

وما إن إستقر التايبينغ في نانكين حتى شرع هونج في شن تنظيمات جديدة ، والاعلان عن برنامج الاصلاح الزراعي القاضي بجعل ملكية الارض جماعية ، غير أن هذا البرنامج لم يحقق بفعل الظروف الشاقة التي واجهت الانتفاضة والمتمثلة في استمرارية المعارك المتعددة ضد جيش المانشو ، فضلا عن إفتقار القيادة الى الكفاءة التخطيطية والاقتصادية . كذلك أقرقادة الانتفاضة في المناطق التي احتلوها حق المرأة في السماواة الاقتصادية والسياسية مع الرجل والسماح لها بالمشاركة في الوظائف العمومية كما دعوا الى محاربة الفساد والميسر وتحريم الافيون .

وإذا كانت مملكة السلام قد نجحت في الاستمرار والبقاء في الحكم مدة أربع عشر سنة فإن قيادتها لم تستطع الحفاظ على تأييد عامة السكان بعد أن انطفأت جدور الحماس الاول ، ذلك أنه بعد استقرار التايبينغ بناكين أقام زعمائها جهازا حكوميا ووضعوا مؤسسات بيروقراطية يتولى موظفوها مهمة فرض الضرائب على الفلاحين مما أدى الى معارضة الاتباع مع مضي السنوات ، هذا بالاضافة الى تفتيت الوحدة القيادية نتيجة الصراع على النفوذ والسلطة وما أحدثه هذا الصراع من انشقاق بين الوعماء كان له أثره البالغ في انهيار مملكة التايبينغ سياسيا وعسكريا ، وعليه فإن انتفاضة التايبينغ لم تكن في حصيلتها النهائية سوى إعادة إنتاج للنظام السياسي الكلاسيكي على حد تعبير الباحث جون شيسنو Jeau Chesneaux .

وبالاضافة الى هذه العوامل المرتبطة بطبيعة الانتفاضة ذاتها وتطور مسارها ، فقد كان من أهم الاسباب التي أدت الى فشلها هو مساعدة القوى الاوربية لحكومة المانشو ومدها بالاسلحة والعتاد لسحق الانتفاضة ، فقد كان من بنود اتفاقية بكين 1860 م إثر هزيمة الصين في حرب الافيون الثانية هو التزام القوى الاوربية بمساندة جيوش الامبراطورية في قمع الانتفاضات الفلاحية ، وفي مقدمتها انتفاضة التايبينغ ، وفعلا بفعل الدعم الاجنبي تمكنت القوات الرسمية من استرجاع أغلب المدن التي إحتلها الثوار وكانت اخرها العاصمة نانكين سنة 1864 م ، كما تعرض أغلب قادتها للاعدام ، وهكذا تم القضاء على مملكة التايبينغ .

وقد تزامنت مع انتفاضة التايبينغ انتفاضات أكثر عفوية عمت مناطق متفرقة من أنحاء الامبراطورية وكان من أهمها انتفاضة إقليم نيان(1853 - 1868) كما ثارت الاقليات المسلمة في الشمال الغربي (1863- 1873) وفي الجنوب الغربي بإقليم يونان (1853 - 1873) وقد اندلعت هذه الانتفاضة الاخيرة نتيجة لسوء معاملة المسؤول الاقليمي للعمال المسلمين وإثقال كاهلهم بالضرائب ، ولم تكن إنتفاضة المسلمين الأقل عنفا وخطورة من التايبينغ ، إذ لم تتمكن حكومة المانشو من إخمادها سنة 1863 م إلا بمساعدة التدخل العسكري للقوى الاجنبية .

7 – الوصاية الإمبريالية وتفاقم أزمة الحكم الصيني

– الطور الثاني –

أوضحت الاحداث التي أعقبت هزيمة الصين في حرب الافيون الاولى وقبولها بالمعاهدات اللامتكافئة وما أثارته من ردود فعل داخلية تمثلت في موجة من الانتفاضات الشعبية التي عبرت عن إستياء السكان من التدخل الاجنبي ومن استبداد موظفي الدولة . وهي انتفاضات ساهمت بدورها في تعميق الازمة العامة

أوضحت هذه الاحداث أن الامبراطورية الصينية قد دخلت مرحلة تأزم شامل ومتعاظم جعلت الصين تحت الوصاية الفعلية للقوى الاوربية وسيطرتها السياسية والاقتصادية ، وبدا معها واضحا أن نفوذ المانشو كان يسير نحو الزوال .

فالدول الاوربية لم تقتنع بما حصلت عليه من امتيازات وأخذت تمارس كل أشكال الضغط مطالبة بتعديل اتفاقيات للحصول على مزيد من التسهيلات والتنازلات ، وكانت أهم مطالبها تتلخص في الاهداف التالية :

- حرية الدخول الى جميع أجزاء الامبراطورية
- حرية الملاحة في نهر اليانجستي
- إباحة قانونية لتجارتي الافيون والخنازير
- إقامة علاقات ديبلوماسية منتظمة مع بكين ، والسماح للمثلين الديبلوماسيين بالاقامة في العاصمة .

وقد كان واضحا أن الصينيين لابد وأن يقاوموا تلك الاهداف ولاينصاعوا لهذه المطالب المشترطة الا أن تصاب الصين بهزيمة ساحقة ، وفعلا لم تجد فرنسا وأنجلترا في خلق معاذير ينتحلونها للحرب وفرض تنازلات جديدية ، حيث استغلت بريطانيا حدث استيلاء السلطات الصينية على سفينة قرصنة صينية ترفع العلم البريطاني ، ووجدت السلطات البريطانية في هذا العمل الذريعة التي كانت تبحث عنها فطلب المندوب السامي البريطاني في هونج كونج الافراج عن بحارة السفينة وتقديم إعتدار عن الحادث لان السفينة وربانها تحت الحماية البريطانية ، ولما رفضت السلطات الصينية هذا الطلب غير المعقول ، أعلنت بريطانيا الحرب على الصين (حربي الافيون الثانية والثالثة). وسرعان ما إنضمت فرنسا لهذه الحرب بدعوى أن قسيسا فرنسيا قد قتل . وانتهت الحرب بهزيمة الصين وإرغام حكومة المانشو على توقيع معاهدة " تيان – تسين " المهينة في(يونيو 1858 م) ومن بعهدها معاهدة بكين (25 أكتوبر 1860 م) .

وقد حققت هذه المعاهدة للدول الاوربية ما كانت تصبو اليه وتحارب من أجله مدة السنوات العشرين التي سبقتها ، فبمقتضاها اتسعت حرية التحرك لدى التجار الاوربيين عبر مجموعة التراب الصيني ، ورفع المنع عن تجارة الافيون وحق الاجانب في استخدام العمال الصينيين في مناطقة بعيدة ، وفتح إحدى عشر ميناء جديدا للتجارة الأوربية ، منح الحرية للمبشرين المسيحيين في نشر معتقداتهم في الداخل ، وبالاضافة الى كل ذلك فرضت المعاهدة رقابة مالية على الصين حيث أصبح أحد المسؤولين البريطانيين مفتشا عاما للجمارك البحرية ، ودفع غرامة حربية ، وفضلا عن ذلك قضت المعاهدة بأن يكون من حق الدول الاجنبية إرسال بعثات سياسية دائمة .

لقد شكلت اتفاقية بكين نقطة تحول كبرى في تاريخ العلاقات الصينية الاجنبية وأنهت صفحة العداء بين حكومة المانشو والقوى الاجنبية ، ذلك أن هذه القوى أصبحت تسعى الى الحفاظ على استمرارية النظام الامبراطوري ، وحصل تحالف بين الطرفين في مواجهة أي تحرك أو تمرد شعبي يستهدف الاطاحة بالاسرة الحاكمة . وأصبحت الصين تحت وصاية الاجانب ، بل كل تاريخ الصين بعد حرب الافيون الثانية الى نهاية القرن التاسع عشر عبارة عن محاولات الدول الاجنبية اقتسام مناطق النفوذ بها . ويمكن الوقوف على هذه الحقائق على النحو التالي :

❖ الحرب الصينية اليابانية (1894 - 1895 م)

مع نهاية القرن 19 غدت اليابان قوة صناعية تتطلع بدورها الى مد تجارتها ، ومنافسة القوى الاوربية في اقتسام النفوذ بالمنطقة ، فبدأت تضغط على الصين للتخلي عن حقوقها التاريخية في كوريا ، واقحمت الصين في حرب صغيرة انتهت بهزيمتها وتوقيع (معاهدة شيمونوسيكي) ، اعترفت فيها بحق اليابان في إقامة المصانع على الاراضي الصينية ، والتخلي عن نفوذها على كوريا . والتنازل عن جزيرة تايوان (فرمورة) وعلى ميناء بور- ارثو ، وشبه جزيرة لياو- تونغ ، وأداء غرامة حربية اضطرت الى إقتراضها من الدول الاوربية .

❖ تجزئة الصين Breakup (1896 – 1898 م)

أعطى الانتصار الياباني إشارة الانطلاق للدول الاوربية وقيامها بعملية تجزئة شبه شاملة للصين مست كل المناطق الاستراتيجية والعسكرية (واتخذ هذا الاجراء شكل عقود تأجيرية لمدة 99 سنة) حيث حصلت كل دولة على منطقة نفوذ يسمح لها فيها استغلال باطن الارض وإنشاء السكك الحديدية واستقدام جيوشها "للحفاظ عن الامن " . وهكذا كانت منشوريا من نصيب روسيا ، وشبه جزيرة شانتونج من نصيب ألمانيا ، وخليج كوانجسو شوان في جنوب الصين من نصيب فرنسا ، بينما استولت بريطانيا على منطقة ويهاي وي ، وكل المنطقة الممتدة على نهر اليانجسيتي ، وبذلك أصبحت الصين عبارة عن مستعمرة دولية .

لقد أدت السياسة الاستعمارية وعملية الابتزاز المنظمة لموارد الامبراطورية الى أزمة مالية خانقة تمثلت في إفلاس الخزينة الصينية ، واضطرت الصين الى الاستدانة من مستغليها ، وتنازلها كضمانة لتسديد القروض عن حق تحصيل رسوم الجمارك وبعض رسوم النقل الداخلي مما يعني سيطرة القوى الاوربية على مقومات الاقتصاد الصيني وعجز النظام المانشوري عن إصلاح الاوضاع والحفاظ على سيادة البلاد . وكانت النتيجة المباشرة هي تزايد سخط وتدمر الفئات الشعبية وحوله من انتفاضات عفوية الى إنتفاضة جماعية منظمة ممثلة في حركة البوكسير التي انطلقت من تالف كل الجمعيات السرية المناهضة لسياسة الحكومة ،ولكل أشكال الوجود الاوربي ، والتي أصبحت تحمل اسم " قبضة اليد للسلام والعدالة "

❖ حركة البوكسير (1897 – 1900 م)

اندلعت حركة في إقليم الشانتونج تحت قيادة جمعية " الفضيلة والنظام " إحدى الجمعيات السرية الكثيرة ، وهي جمعية عوفت بممارستها لرياضة الملاكمة المقدسة التي كانت تجمع في نفس الآن بين تمارين جسدية وتدريب نفسي حيث كان المنضوون تحت لوائها يمارسون محموعة من الطقوس الدينية والسحرية مرتدين زيا خاصا يميزهم عن غيرهم ، وقد كان

أغلب أعضاء الجمعية في بداية انطلاقتها هم فلاحي الشمال المتضررين من مجاعتي 1896-1897 م وفيضانات النهر الاصفر 1896 م ، فضلا عن العناصر التي همشها الوجود الاوربي (صغار التجار ، الحرفيون ، البحارة القدامى، الجنود المطرودين) ، ومن صفوف هؤلاء تشكلت قيادة الحركة الكونفوشين كما انضم الى الجمعية عدد كبير من المثقفين الكونفوشين نظرا لان تزايد النفوذ الفكري والديني للمبشرين المسيحيين أصبح يهدد وجودهم ويشكل خطرا عليهم ، كما كان من أعضاء الجمعية نساء كثيرات شكلن وحدات داخل الجمعية كوحدة " المصابيح البيضاء " و "المصابيح الحمراء " ولاشك أن حضور المرأة بهذه الكثافة كان يعكس مدى عمق الازمة الاجتماعية التي أدت الى تفكيك الاسرة التقليدية في المدن وحتى البوادي .

لقد إنطلقت حركة البوكسير كحركة فلاحية مستهدفة تصفية "الماندران " وكبار ملاك الاراضي ،رافضة لكل أنواع الضرائب ، غير أن عداءها كان موجها أساسا ضد الاجانب ولاسيما المبشرين والضينيين المتمسحين ، وتتضح معاداتها للتحديث وكراهيتها للأجانب من خلال الشعارات التي كانت ترفعها مثلا " إن المسيحيين والبرابرة أقلقوا راحة آلهتنا بحياتهم الفاضحة وهذا هو الاصل في الماسي التي تنصب على رؤوسنا ، هذا الجفاف المهول الذي عم هذه السنة أغلب المناطق سيستمر فيها مادام بين جدراننا شخص واحد من هذه الشياطين ".

بمثل هذه القناعات اندلعت حركة البوكسير ودخلت في صراع ضد كل أشكال الوجود الاوربي حيث قامت بقطع خطوط التلغراف والسكك الحديدية المؤدية الى بكين وتخريب المراكز التجارية والمؤسسات الصناعية ونهب مباني المبشرين وتعرض الاجانب في إقليم شانتونغ الى تصفية جسدية واسعة ، ومع توسع قاعدة صفوف الحركة اصبح هدفها هو احتلال العاصمة بكين .

أما موقف الحكومة ، فقد عارضت تحت وطأة ضغط الدول الاجنبية – أعمال التمرد التي كان يقوم بها الملاكمون حيث شن حاكم إقليم شانتونج حملة قمع واسعة وتم إعدام محموعة من كبار مسيري الجمعية ، كما منع الانخراط في أي جمعية من الجمعيات السرية ، غير أن هذه الاجراءات لم تحل دون استمرارية الحركة بل عن العكس من ذلك ازدادت قوة وتوسع نفوذها مما جعل أسرة المانشو تغير موقفها تجاه البوكسير.

لقد ارتأت الإمبراطورية " تزوهسي " تجنبا للاصطدام مع قوة الملاكمين واستغلالها لحسابها في الضغط على الأجانب ، إذ لم تبد أي مقاومة أثناء زحفها الى بكين ومهاجمتهم لممتلكات ومباني الاجانب ، بل أكثر من ذلك اعترفت علانية بمشروعية حركة بوكسير ، كما انضمت بعض القوات االرسمية الى قوات الملاكمين أثناء مهاجمة المفوضيات الاجنبية في بكين وضواحيها طيلة خمسة أيام لقي خلالها الاجانب خسائر كبيرة في ارواح والمملكات ، عندئذ شعر ممثلو الدول الاجنبية بضرورة اتخاد إجراءات حربية غير أن كل دولة وقتذاك لم تكن لتسمح للأخرى بمبادرة التدخل منفردة حتى لاتوسع نفوذها على حساب الدول الاخرى ، غير أن حدث إغتيال الوزير الالملني " كيتلر " ببكين دفع هذه الولة الى شن حملة من الدعاية استهدفت تأجيج الراي العام الاوربي وحث الحكومات على التدخل الفوري لسحق حركة الملاكمين وما هي إلا أيام حتى اقتحمت القوات الاجنبية العاصمة بكين ، وعلى امتداد اسبوعين تعرض الصينيون لابشع الجرائم حيث كان يتم يوميا إعدام ألاف المواطنيين كما تم تدمير المنازل والاحياء ونهب نفائس القصر الامبراطوري ، وأرغمت الصين مرة أخرى

على قبول صلح مهين ، حيث فرضت القوى الاوربية دفع تعويضات باهضة بلغت مائة مليون جنيه ، وحق إبقاء حاميات عسكرية ببكين لضمان حماية وأمن الرعايا الاجانب وحراسة السفارات الاجنبية ، كما تقرر حضر اسيؤاد الاسلحة لمدة سنتين ، وهدم تحصينات " تاكو" مما يعني وضع بكين تحت الاحتلال الأجنبي الفعلي .

8 – الحركية الإصلاحية في الصين أواخر القرن 19 م

أصبحت الصين أواخر القرن التاسع عشر تموج بالتيارات الفكرية والسياسية المختلفة بحثا عن حل للازمة العامة بالبلاد.

- كانت هناك الدوائر الحاكمة والطبقة الارستقراطية التي رأت أن المخرج يكمن في ضمان صداقة الاجانب ، والقيام بحركة تغريب واسعة في الادارة والثقافة والتعليم ، وإدخال الصناعات الحديثة ولاسيما صناعة الاسلحة والترسانات البحرية والسكك الحديدية لاشعار الشعب بقوتها دون المساس بالاوضاع التقليدية المحافظة في المجتمع الصيني .
- وكان هناك دعاة الاصلاح الاجتماعي من البورجوازيين لمعتدلين الذين يرون أنه لايمكن الاخد بمظاهر الحضارة الغربية ، وإنما النفاذ الى لبها وجوهرها بما في ذلك إصلاح النظام الاقطاعي السياسي والاخد بالملكية الدستورية المقيدة.
- وكان هناك فريق اخر من البورجوازية الثوريين الذين يمثلهم صن يات صن ويلتف حوله المبعوثون الصينيون في الخارج ، هؤلاء يرون لامخرج إلا بالقضاء على النظام الفاسد من جدوره وإنشاء جمهورية حديثة فتية .
- وأخيرا كان هناك تيار شعبي عارم تمثله الجمعيات السرية التلقائية المتعددة المنتشرة في جميع أنحاء الصين ، وهو تيار ليس له زعماء معينون ، وليس له خطة واضحة للإصلاح ، ولكنه يتميز بطاقة ثورية هائلة موجهة في المقام الأول ضد الأجانب وما يمثلونه من خطر مادي ومعنوي .

وقد جرب كل من هذه التيارات حظه وساهم بما يستطيع في تطوير حظه وساهم بما يستطيع في تطوير الحركة الوطنية في الصين . فأما الرأسماليون المحافظون فقد بدءوا في الظهور كطبقة جديدة ناشئة لإقدام التجار وبعض الإقطاعيين وكبار الموظفين على استثمار أموالهم في الصناعة ، وقد وجدت الرأسمالية المحلية في بداية نشأتها مقاومة وكراهية من الرأسمالية الاستعمارية والإقطاع الداخلي مما جعلها تأخذ في أول الأمر طابعا وطنيا ، ولكن ذلك كان الى حين ، فسرعان ما انحازت نهائيا إلى صفوف الاستعمار.

أما البرجوازيون الاصلاحيون فكانت لهم حركة قوية في نهاية القرن إنتهت بمأساة ، وسبب هذه المأساة أنهم وثقوا في الرجعية أكثر مما يجب بل خيل اليهم أنهم مستطيعون تحقيق أهدافهم في الاصلاح عن طريق نفس الاجهزة الرجعية التي تعوق بطبيعتها التقدم الاجتماعي ، كان مثلهم الاعلى جارتهم اليابان التي أخدت الروح الغربية مع الابقاء على كل تقاليد القومية بما فيها النظام الملكي الامبراطوري ، وكان يمثل هذه الحركة رجال من أمثال " كانج يو وي "و " يانج شي شاو " و "ثان تسي تونج " الذين اشتهروا باطلاعهم الواسع على النظرية السياسية الغربية مع التضلع في التراث الثقافي الصيني . وسيطروا فعلا بأفكارهم على المجرى العام للتفكير في الصين في أواخر القرن التاسع عشر ، فأنشأوا الصحف والجمعيات الثقافية والعلمية ، وروجوا شعارات الإصلاح و قدموا العرائض الى القصر والمسؤولين شارحين وجهة نظرهم ومحذرين من الهاوية التي تتردى فيها البلاد .

ونجح دعاة هؤلاء في الوصول الى قلب الامبراطور الشاب " كونج هسو " الذي كان يواجه مؤامرات في القصر الامبراطوري تدبرها عمته الداهية " دو واجرتز وزهسي" ففتح الامبراطور

صدره لدعاة للاصلاح وعين " كانج يو وي " وبعض زملائه أعضاء في المجلس الاستشاري الكبير الذي يرأسه الامبراطر شخصيا لمساعدته في إصدار المراسيم ودراسة المذكرات والعرائض التي ترفع إليه .

وبين شهري يونيو وسبتمبر عام 1889 م أصدر الامبراطور " كونج هسو " عددا من مراسيم الاصلاح شملت إلغاء نظام الكتابة التقليدية المعقدة ، وتخفيض عدد موظفي الحكومة والحرس الامبراطوري ، وإنشاء بنك وطني ومؤسسة عامة للتعدين والسكك الحديدية وديوان للزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع مشروع لميزانية الدولة ، وإنشاء مدارس حديثة ، والتوسع في الصناعات المختلفة ، ونشر الكتب والمخترعات وإنشاء مكتب للترجمة عن اللغات الغربية ، والاخد بنظام التدريب الحديث في الجيش ، وإقرار حق جميع المواطنيين في توجيه النداءات المباشرة الى الامبراطور .

وأخطأ دعاة الاصلاح في إعتقادهم أن الامر لا يتطلب أكثر من إصدار المراسيم حتى يصبح كل شيء على ما يرام ، ففي الواقع لم يوضع أي مرسوم منها موضع التنفيذ ، بل أثار هذا الاتجاه رد فعل قوي من الدوائر الاقطاعية ، وكانت السلطة الحقيقية في يد الامبراطورة الشمطاء "دو-واجرتزوهسي" التي كانت عمة الامبراطور ، وأصبحت وصية العرش منذ تولي " كوانج هسو " الحكم ، وأثناء فترة حكمها الطويل استطاعت أن تجعل الكثير من الوزراء والقادة العسكريين رجالا تابعين لها وظلت تتمتع بالسلطة الحقيقية من وراء العرش ، وبالطبع كانت تلك المجموعة المحافظة تخشى الاتجاهات التي تبناها الامبراطور الشاب فكرست كل قواها لاجهاض حركة الاصلاح ، وفي 11 يونيو من نفس العام قامت الامبراطورة وأعوانها بحركة مضادة ومفاجئة فاعتقلوا الامبراطور كونج هسو في قصره ، وألقوا القبض على جماعة أنصاره فأعدموا بعضهم وزجوا بآخرين في غياهب السجون ، وفر باقي دعاة الاصلاح الى أعماق الريف أوخارج البلاد ، وبذلك بترت حركة الاصلاح التي استمرت 103 أيام وعرفت بإصلاح المائة يوم .

والواقع أن السبب الحقيقي لفشل حركة الاصلاح ليس الامبراطورة " دو واجر " في حد ذاتها ، وإنما لان هذه الحركة كانت تسعى لتحويل الصين الى دولة رأسمالية دون القضاء على النظام الاقطاعي فيها ، كما كان دعاة الاصلاح هؤلاء يظنون أن في إمكانهم تحقيق أهدافهم عن طريق الامبراطور الذي مهما بلغ من حسن النية يعتبر قمة الهرم الاجتماعي السياسي الفاسد ، وعلى أية حال فقد أثبت فشل هذه الحركة أن الطريق مغلق تماما في وجه الاصلاح البورجوازي في الصين سيما أن دعاة الاصلاح كانوا في معزل عن تيار الشعب الهادر، ففي تلك الفترة قام الفلاحون تلقائيا بالثورة ضد العدوان الاجنبي في حركة عرفت بهبة الملاكين أو البوكسير التي نجحت في سنوات قليلة في إكتساح الصين لتعيد الى الاذهان حركة التايبينغ .

9 – ثورة 1911 وميلاد الجمهورية الصينية

بعد فشل الاصلاح وإخماد البوكسير وما أسفرت عنه هاته الانتفاضة من انتكاسات عمقتها هزيمة الصين أما اليابان ، استفحلت الازمة وبلغت الاوضاع الى عتمة الانفجار، فلقد ازداد التدخل الاجنبي في شؤون الصين الداخلية ، وحصل الاجانب على امتيازات ضخمة سيطروا بها تماما على اقتصاديات الصين ، وتأكد تواطئ السلطة الحاكمة مع القوى الاجنبية بإصدار الامبراطورة " تزوهسي " سنة 1900 م بعد إخماد حركة البوكسير ، إعلانا رسميا نصت فيه صراحة على أن " **السياسة الخارجية لحكومة الصين تهدف الى إرضاء الدول الاجنبية بأقصى ما تسمح به موارد الصين**" . وقد بلغ من تخادل الحكومة أنها وقفت موقف المتفرج من الحرب الروسية اليابانية التي دارت على أرض الصين سنة 1904 م بحجة التزام الحياد الدقيق ، وفي نفس الوقت كانت أعمل التمرد والمعرضة تسود كل أقاليم البلاد ، ففي سنة 1903 م حدثت 45 حركة تمرد وفي سنة 1904 م أكثر من 90 حركة كما أحصت إحدى الصحف المرحلة 113 انتفاضة سنة 1909 م .

وبموازاة هذا الهيجان الشعبي ، كان الاف الشباب يسافرون الى الخارج ولاسيما الى اليابان للدراسة والتحصيل ، وتكونت بين صفوفهم عشرات الجمعيات الثورية داخل الصين وخارجها من أهمها : جمعية "رابطة الاصلاح " التي أنشئت عام 1903 في كيانجسو وشيكاينغ ، وجمعية " الدراسات اليومية " التي أنشئت في نفس السنة . وفي سنة 1905 عقد المبعوثون الى اليابان مؤتمرا في طوكيو اسفر عن تأسيس حزب أطلق على إسمه " **تونغ مينغ Tong-ming** " حزب "**الخلاص الصيني** " برئاسة صن يات صن . وقد كان برنامج الحزب يتلخص في ما أسماه بالبلاغ الذي حدد الاهداف الكبرى المنشودة ، وهي التخلص من حكم المانشو وإعلان الجمهورية وإنعاش اقتصاديات الصين وتحقيق المساواة في الملكية الزراعية وإنشاء دولة وطنية ديمقراطية ، ويبدو واضحا مدى تأثر إيديولوجية حزب "**الخلاص الصيني** " بالفكر الليبرالي وبالمبادئ الاشتراكية الاولية وقيم الحرية والمساواة والمواطنة ، فزعيم الحزب صن يات صن تخرج من جامعة بريطانية بهونج كونج وأتم دراسته في الولايات المتحدة الامريكية وتأثر على الخصوص بالفكر الاقتصادي الامريكي ولاسيما كتبات هنري جورج Henri George كما تأثر بكتابات ياكونين ومونتسكيو ، على أن أهم كتاب تأثر به كتاب الامريكي لنكولن الذي يحما عنوان " **من الشعب بواسطة الشعب والى الشعب** "وقد لقي الحزب تأييدا واسعا وتوسعت قاعدته بإنضمام عشرا الجمعيات الثورية الاخرى ، كما استطاع أن يوصل نفوذه وحدات الجيش الامبراطوري ، معتمدا في بلوغ ذلك على الواجهة الاعلامية والدعائية عن طريق صحيفته " **مين باو – صحيفة الشعب** " وعن طريق إصدار منشورات وكراسات تعرف بإيديولوجية وأهداف الحزب بين صفوف الشباب

أدركت حكومة المانشو خطورة الوضع ، ولانقاد نفسها من مصير المحتوم قررت أن تتحول ذاتيا الى حكومة دستورية وذلك بإصدار عدد من قوانين الاصلاح وتكوين مجلس إستشاري كمحاولة لامتصاص السخط الشعبي المتزايد وللظهور بمظهر الدولة الحديثة أمام الاجانب وكادت أن تنجح هذه المناورة حيث أيدها بعض دعاة الاصلاح المنفيين إثر فشل التجربة الاصلاحية لسنة 1898 م ، وكان هؤلاء قد أسسوا " **الرابطة السياسية** " بطوكيو ، وأصدروا بيانا يؤيدون فيه التدابير الموعودة ، وعادوا الى الوطن وساهموا في الدفاع عن الاصلاح الدستوري المزعوم ، غير أن الطريقة التي كون بها المجلس الاستشاري كانت باعثا علة تعميق التدمر إذ أن كل أفراده كانوا ينتمون الى الاسرة الحاكمة أسرة المانشو التي كان الصينيون يكنون لها عداء تام . هذا فضلا عن الموقف الصارم الذي تبناه الحزب والداعي الى رفض هذه المناورة ، وقد شكل فشل هذه المحاولة السبب الاول من أسباب إندلاع ثورة 1911 م . أما اسبب الثاني

كان يتمثل في القرار الذي أصدرته الحكومة الصينية والذي كان ينص على تأميم الخطوط الحديدية وتسليمها كشركة للتسيير الاجنبي مما جعل الصينيين يرون أن الحكومة تصادر أملاكا وطنية وتفوتها لفائدة المستثمرين الاجانب ، كل ذلك ساهم في خلق أسباب مزيد من السخط وأعمال التمرد حيث شهدت سنة 1910 م أكثر من 284 حركة شارك فيها لاول مرة العمال وممثلوا البرجوازية الصغرى ونهبوا مخاون القمح ، وقاوموا البعثات التبشيرية وحطموا مصانع الاجانب ومتاجرهم ، وبدا واضحا تجاوز الوضع لاسرة المانشو

وفي شهر أكتوبر 1911 بدأت المراحل الاولى للثورة بإضراب عام أعلنه التجار والذي انطلق من الاقاليم الجنوبية ليعم الصين الوسطى ثم أقاليم الشمال ، وارتفعت الشعارات تندد باسرة المانشو وبالوجود الاجنبي ، بعد ذلك انطلقت الثورة المسلحة وكانت إنطلاقتها من مركز إستراتيجي ومنطقة نفوذ سياسي وعسكري لاسرة المانشو وهي مدينة " يونغ تسي " حيث يوجد أكبر معامل الاسلحة ، فقام العمال بمهاجمة إدارة المعمل والاستيلاء على الاسلحة والاعلان عن السيطرة على المدينة ، وبعد ذلك تشكلت فرق عسكرية توجهت للاستيلاء على العاصمة ، والقضاء على الامبراطورية وتكوين الجمهورية الصينية .

غير أن هذا الوليد الثوري جاء مخلوقا مشوها ، ذلك أنه عند تكوين الجمهورية الصينية استدعى صن يات ليترأس هاته الجمهورية ، لكنه تأخر في العودة واعترف بضرورة تأمين التأييد الخارجي للثورة ، كما أن حزب الخلاص الصيني لم يكن مستعدا بخطة مدروسة لتوجيه الحركة الكاسحة ، فكان ذلك مناسبة وفرصة لطموح شخصية أعلنت تقلدها منصب الرئيس الجمهورية ، وكان وصول هاته الشخصية الى الحكم من أهم المفارقات التي عرفتها الثورة الصينية ، لقد اضطر صن يات الى التنازل عن رئاسة الحكومة المؤقتة الى هاته الشخصية **يوان شي كاي** مشترطا عليه قطع العلاقة مع أسرة المانشو واحترام مقتضيات الدستور المؤقت . وفي فبراير 1912 م تنازل الامبراطور الطفل (هسيوان تونج) عن العرش وتولى **يوان شي كاي** رئاسة جمهورية الصين الجديدة، وقد كان هذا الاخير وزير الدفاع وممثلا لكبار الملاك وخادما للاجانب ، ساهم في خيانة حركة الاصلاح المعروفة بغصلاح المائة يوم 1898 م ، كما انضم الى القوات الاجنبية من أجل سحق انتفاضة البوكسير وهو أيضا القائد العسكري الذي استنجدت به أسرة المانشو عند قيام ثورة الجمهورية ، لكنه تسلل الى صفوف الثوار بعد أن تيقن من عجز المانشو عن مواجهة هذه الثورة ، وأصبح من مناصريها والمدافعين عنها ، ومن القصر الامبراطوري أعلن نفسه رئيسا للجمهورية الصينية .

لقد أثارت ثورة 1911 م مجموعة من التساؤلات حول ماهيتها هل هي ثورة وطنية ؟ هل هي ثورة ضد حكومة المانشو ؟ ما هو مستقبلها

صفوة القول إنه إذا كانت الثورة قد فشلت في تغيير الاوضاع حذريا فإنها في ذات الوقت قد نجحت في القضاء على النظام السياسي الامبراطوري الذي استمر الاف السنيين وزرعت فكرة الجمهورية الديمقراطية في قلوب الصينيين .

نصوص تاريخية

نص رقم 1 :

أهمية الكونفوشيوسية

إن البلدان الاوربية التي كانت أسرع من غيرها في تحقيق التصنيع هي – كما ينوه " ماكس فيبر" في كتابه الاخلاق البروتيستانتية وروح الرأسمالية L'éthique protestants et l'esprit capitaliste التي كانت أشد تأثرا لاصلاح الدين . فبلدان أوربا الجنوبية ، التي بقيت مرتبطة بإطار الكنيسة الكاثوليكية الثقافي لم تساهم إلا بشكل متأخر في ثورة القرن التاسع عشر الصناعية ، بل كانت أوربا الجنوبية ما تزال في مطلع القرن العشرين متخلفة الى حد كبير عن بلدان الشمال البروتستانية ، وكان لابد من إنتظار النصف الثاني من القرن العشرين من أجل بلوغ نوع من التجانس ضمن الامم الاوربية .

ما السر إذن في أن اليابان ، وتبعتها بلدان صغيرة اسيوية أخرى انجرفت بالكثير من الديناميكية في مسيرة التصنيع ؟ إذا ما قارن المرء ذلك مع بلدان نامية أخرى في السنوات العشرين الاخيرة ، لايمكن إلا أن يندهش المرء للتباعد المتزايد الذي حققته البلدان الاسيوية عن إفريقيا السوداء وأمريكا اللاتينية رغم غناهما بالثروات الطبيعية ، ذلك يعود بالدرجة الاولى الى العادات المتعلقة بالعمل والى الخطوط العامة للتفكير لدى السكان ، فكما كان الامر في أوربا ، البلدان السيوية لديها فلسفة تساعد على عملية الاقلاع الاقتصادي .

الكونفوشيوسية مربوطة بشكل وثق بالبلدان الصناعية الاسيوية ، إن اليابان وكوريا الجنوبية بقيتا فترات طويلة من تاريخها دائرتين في فلك الصين . أما تايوان وهونج كونج وسنغفورة ، لقد ساعدة الكونفوشيوسية الى حد كبير باحترامها للتدرج الرتبوي (**الهيرارشية**) وبحس التضامن والانتماء الى الجماعة على الإنطلاقة الاقتصادية لتلك البلدان . إن ذلك حتما هو عنصر مفصلي لدى محاولة فهم السر في سرعة التصنيع في اسيا وفي نجاحه حتى ضمن هذه المنطقة يستطيع المرء أن يلاحظ فروقا تتبع التأثيرات الثقافية . فالفلبين وأندونيسيا وبلدان المنطقة الاخرى ، التي لم تنعم بالمساعدة الكونفوشيوسية كانت قد عرفت إقلاع إقتصادي صعب ، ما تزال هذه البلدان حاليا مرتبطة ارتباطا شديدا بالزراعة .

- لوموند ديبلوماتيك ع 5 فبراير – مارس 1989 شارل تستوز Charles Testuz

نص رقم 2 :

كانت إمبراطورية مينغ متفوقة على كل الامبراطوريات السابقة في مجال الصناعات اليدوية ، وذلك يرجع الى تحرر العمال اليدويين من وضع العبودية ، ونقل كثير من الفنون اليدوية من المناطق الغربية أثناء حكم يوان .

وقد أحرزت صناعة الحديد وبناء السفن والغزل والنسيج والطباعة وإنتاج الاواني الخزفية تقدما تقنيا ملموسا. وكان من أشهر الصناعات صناعة الحديد في تسونهو في مقاطعة خبى ، والطباعة في بيلينغ والغزل ةالنسيج في سوتشو و هانغتشو ، وصناعة الزجاج في بيدو في شاندونغ وبناء السفن في قوانغدونغ وفوجيان . وكان لصناعة الاواني الخزفية في جينغدتشن بجيانغشي شهرة أوسع حيث كانت تنتج سنويا عشرات الالاف من القطع الخزفية ، وبلغ عددها 159 ألف قطعة في عام 1591 . وهذه الصناعات اليدوية لم يكن بالامكان أن تؤسس بالاعتماد على الجهود الفردية ، وإنما نشأت في شكل جماعي ذي طابع رأسمالي بدائي . ويمكن القول أن الصين التي دخلت مع تشو الغربية بداية مرحلة الاقطاع ، قد وصلت في أواسط أسرة مينغ الى الطور الاخير منه .

ونتيجة للاوامر التي أصدرها الامبراطور تاي تسو للفلاحين بوجوب زراعة القطن ، اصبح غزل الصوف ونسج القطن عملا رئيسيا لهم . ومنذ القرن السادس عشر ، أقام التجار علاقات مباشرة مع الغولين والنساجين الريفيين ، مثبتين طلبات شراء منتوجاتهم القطنية . ومع بداية القرن التالي أصبح بإمكان الغزالين والنساجين في الارياف الحصول على الالات والمواد الخام من التجار ، وصنع المنسوجات لهم لقاء أجور على شكل مكافآت .

وبدأ الصناع اليدويين في تشكيل روابط مهنية لحماية مصالحهم ولكنها كانت بشكل رئيسي لحماية الحقوق لرؤساء الروابط المشتركة . بينما قدمت الخدمات للحكومة أيضا مثل ترتيب السخرة وجمع التبرعات . وفي عهد مينغ ، ظهرت الى الوجود 23 مدينة عشرة في تشيانغ وجيانغسو .

وكان للتجار تنظيمات خاصة بهم ، بعضها في شكل روابط مفتوحة لمن يمارسون نفس النوع من التجارة وبعضها الاخر في شكل دور تجارية تضم التجار القادمين من نفس المقاطعة أو المدينة .

ووصلت التجارة الخارجية مستوى رفيعا في الأيام الأولى لأسرة مينغ ، وقد وصلت السفن التجارية البرتغالية الى قوانغدونغ في 1512 م مفتحة بذلك خطا بحريا بين الصين وأوربا . ثم قدم التجار الاسبان في 1557 م وتبعهم الهولنديون في 1606 م ، فالانجليز في سنة 1637 م ، ثم جاءت البعثات التبشيرية . ففي سنة 1581 م وصل المبشر اليسوعي الايطالي ما تيوربتشي(1552- 1610 م) الى قوانغدونغ للتبشير بالمسيحية ، ثم تبعه بعثات كاثوليكية عديدة الى الصين .

من كتاب موجز تاريخ الصين
جيان بوه تسان شاوشيون تشنغ هوهوا
من ص : 58 الى 60

نص رقم 3:

أخذت الصين ، بعد هزيمتها في حرب الافيون ، تكتسب خصائص بلد شبه مستعمر . وقد تفاقمت هذه الحالة مع تزايد انضمام القوى الرجعية المحلية الى القوى الرجعية الاجنبية لقمع مقاومة الشعب الصيني المتعاظمة . وقد هزت ثورة تايبينغ أركان حكومة تشينغ ، فضاعف الحكام من قمعهم للشعب ، وزادوا من تواطئهم مع الامبرياليين – الرأسماليين الاجانب . واعتمد النظام الاقطاعي بزعامة الامبراطورة الام تسي شي على مؤتزرة حرب هونان بقيادة تسنغ فوه فان ، وأمراء حرب انهوى بقيادة هونغ تشانغ ، من أجل السيطرة على الدولة . وكان لي هونغ تشانغ قد سيطر ، لاكثر من عشرين سنة 1870 م ، على القوات البرية والبحرية ، وفرض القمع ضد الشعب .

بدأ الانتاج الزراعي الصيني ، في ثمانينيات القرن التاسع عشر ، يستعيد عافيته من اثار سنوات الحرب الطويلة التي سببت ماسي شنيعة في الارياف ، لكن طبقة الملاك واصلت سياستها القديمة في ضم الاراضي مما سبب هبوط مستوى معيشة عامة الشعب وفرض بلاط تشينغ المتفسخ والمتداعي أعباء جديدة على الفلاحين وصغار التجار والصناع ، بغية سد العجز المالي المتفاقم . وفي نفس الوقت ، جلب الرأسماليون الاجانب كميات طائلة من الغزل والسلع القطنية والتبغ ، مما أجبر الفلاحين على بيع إنتاجهم الزراعي بأسعار زهيدة وأدى في نفس الوقت الى ضرب الانتاج الحرفي في البلاد . فتضاعف حجم الاستيراد والتصدير من 100 مليون الى 300 مليون تايل جمركي ، في المدة مابين 1864- 1893 م . وكان الافيون والسلع الصناعية من المستوردات الرئيسية . أما الصادرات فهي الشاي والحرير والقطن ومواد خام أخرى. وإحتكرت السفن الاجنبية النقل التجاري البحري والنهري ، وسيطرمفتش عام أجنبي على مصلحة الجمارك وحراسة السواحل . كما سيطرت البنوك الاجنبية على المالية الصينية . وجثم الاستغلال الإقطاعي والاسترقاق الاقتصادي الاجنبي على الشعب الصيني مثل جبلين ضخمين .

من كتاب موجز تاريخ الصين
جيان بوه تسان شاوشيون تشنغ هوهوا
من ص : 82 الى 83 .

نص رقم 4 :

إلا أنه بحلول القرن التاسع عشر بدأ ركود إقتصادي نسبي في البلاد ، واستفحل الاستغلال المفرط من جانب الملاكين وكذلك الربا في المناطق الاكثر خصبا وبدأ التضخم السكاني الفلاحي يتجلى في القرى وأدى التوسع العسكري المانشوي والبذخ البلاطي في عهد الإمبراطور (شيين لونك) في النصف الاخير من القرن الثامن عشر الى زيادة الضغوط المالية مرة أخرى إلى حد لايطاق وفي 1759 م انفجرت أول ثورة فلاحية كبرى في الشمال الغربي وتم قمعها بصعوبة بعد ثمانية أعوام من القتال ثم دخلت الصناعات هي الأخرى فترة أزمة متعاظمة . أما الصناعات الاستهلاكية التي كانت على الدوام الاكثر حيوية منذ عهد مينغ فإنها هي الأخرى لم تحقق أي تقدم تكنولوجي بارز في عهد شينك كما أن استخدام العمل المأجور لم يكن قد توسع بشكل ملحوظ داخل هذه الصناعات عند حلول أوائل القرن التاسع عشر . وفضلا عن ذلك فمنذ أواسط القرن التاسع عشر فصاعدا بدأ التوسع الامبريالي الأوربي للمرة الأولى بمهاجمة التجارة والصناعات الصينية التقليدية وتفكيك الجهاز الدفاعي برمته لدولة شينك . وكان الشكل الأولي للضغط الغربي تجاريا يأتي في الأساس . ذلك أن تجارت الافيون غير القانونية التي كانت تقوم بها الشركات الانجليزية منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر فصاعدا في جنوب الصين خلقت عجزا تجاريا لحكومة المانشو ، مما ضاعف في زيادة العجز في ميزان المدفوعات هبوط قيمة الفضة في السوق العالمي مما أدى الى إنخفاض قيمة العملة الصينية وتصاعد التضخم المحلي وان محاولة شينك وقف تجارة الافيون أحبطت بالقوة المسلحة وذلك في الحرب الانكلو- صينية 1841 – 1842 م .

ثم أعقب هذه الانتكاسات الاقتصادية والعسكرية المصحوبة بتغلغل ايديولوجي من الخارج أعقبها الزلزال الاجتماعي العظيم لثورة تايبينغ ... إن ثورة تايبينغ والاحداث التي رافقتها دشنت الانحلال النهائي لنظام المانشو السياسي ، وقد حاولت الدولة الامبراطورية إصلاح شؤونها المالية عن طريق فرض ضرائب تجارية جديدة ارتفع مجموع قيمتها بحوالي سبعة أضعاف فيما بين 1850 و 1910 م . وهو عبء زاد في ضعف الصناعات المحلية في الوقت الذي كانت تتعرض فيه للمزاحمة الاجنبية العنيفة ... وإشتد الضغط العسكري الامبريالي باضطراد وبلغ ذروته في الحرب الصينية – اليابانية لعامي 1894 – 1895 م . وأثارت الاهانات الاجنبية هيجانا محليا (ثورة البوكسير) وهذا بدوره أدى الى مزيد من التدخل الاجنبي ، وتزعزعت دولة شينك بفعل هذه الضربات المتعددة ، ثم سقطت نهائيا بفعل الثورة الجمهورية في سنة 1911 م .

من كتاب : دولة الشرق الاستبدادية
بير أند رسون – ترجمة بديع عمر نظمي
مؤسسة الأبحاث العربية
من ص ، 128 الى 130